



معهد البحوث والدراسات العربية

محمد فريد وحيد

حياته وأثاره

١

الدكتور محمد طه الحاجري

[قسم البحوث والدراسات الأدبية واللغوية]

١٩٧٠

اهداءات ٢٠٠٢

الشاعر/ محمد العليم القباني

الإسكندرية



معهد البحوث والدراسات العربية

محمّد فريد حجازي

حياته وآثاره

١

الدكتور محمد طه الحاجري

[قسم البحوث والدراسات الأدبية واللغوية]

١٩٧٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كانت الكتابة عن محمد فريد وجدى ، تعريفاً به ، وتصويراً لحياته وتحليلاً لآثاره ، وبياناً لآثره فى كثير من جوانب الحياة فى عصره . أمنية من أعز الأمنيات التى كانت ما تزال تراودنى ، وأود لو استطعت أن أتوفر على تحقيقها ، على الوجه الأمثل . وكلما امتد الزمن اشتد إلحاحها على ، إذ كان ضباب النسيان الذى جعل يتكاثف بسرعة حوله ، يوماً بعد يوم ، مما يجعل تحقيق هذه الأمنية — ولو بصورة مقارنة — من ضرورات حياتنا الفكرية .

ثم كان — فيما احسب — من أسباب إلحاح هذه الأمنية على أن فريد وجدى يمثل فى ذاكرة هذا الشيخ الذى مازال يلتبس متعته فى مراجعة صور حياته الأولى ، صورة من أول هذه الصور وأجملها وأعزها ، منذ نصف قرن من الزمن تقريباً .

وكان أول ذلك فى صيف سنة ١٩٢١ وقد عاد ذلك الصبى الذى كان يتناول إلى الشباب إلى مدينته الصغيرة فى الصعيد الأدنى ، فى أول إجازة صيف ، مزهواً بما تلقى فى القاهرة من علوم الكبار ومعارفهم ، سعيداً بما يحمل فى صدره من ذكريات عامه الأول فيها ، وما أتيح له من ألوان الحياة القاهرية التى تضطرب بمشاهد النشاط الأدبى والعلمى والسياسى فى ذلك العام الحافل بالحماسة الدافقة ، تغمر النفوس ، وتوجب فيها نوازع الطموح .

وكان أبو الصبى يجلس فى الأصائل إلى المكتبة الوحيدة فى تلك

المدينة، وكان صاحبها رجلاً سودانياً طلي الحديث . وخاصة حين يتحدث عن السودان ، ويروى أحداثه ، ويشرح وجوه قضيته ، ويذكر ذلك المؤلف الضخم الذى عالج فيه هذه القضية ، والذى كان ما يزال مخطوطاً . وكان أبو الصبى يصطحب صبيه أحياناً معه فى مجلسه هذا .

وكان الجلوس فى هذه المكتبة مع روادها ، والاستماع إلى أحاديثهم التى كانت تتراوح بين السياسة والأدب ، يرضى غروره ، ويهيج فى نفسه الرغبة فى القراءة والتطلع إلى المعرفة ، يلتمسها فى كل ما يمكن أن يقع له .

وكان مما عرض له فى هذه المكتبة ، وشجعه أبوه على قراءته . مجلة صغيرة اسمها «الوجديات» ، قوامها قصة خيالية ، فى صياغة جميلة وأسلوب رفيع ، يجمع بين جزالة اللفظ وموسيقية العبارة . مما كان يزدهى صبيّاً مثله ، شديد التوثب أن يقرأه ويتفهمه ويتذوقه ويظل يردده .

وقد استولت هذه المجلة على إعجاب الصبى . فما كاد يعود إلى القاهرة بعد انتهاء الإجازة . حتى جعل يلتمس أعدادها . مقبلاً على قراءتها وتذوقها . وقد صار اسم صاحبها من أول الأسماء التى تثير فى نفسه مشاعر الحب والإجلال .

فما يكاد يعلم أنه يصدر دائرة معارف ، وأنه يتيحها للقراء فى أجزاء شهرية . حتى يسارع إلى قيد اسمه بين مشتركىها . وما يزال يذكر الفرحة التى كانت تغمره حين كان يمضى إلى مكتب البريد كل شهر ، ليتسلم ذلك الجزء ، ويطير به إلى البيت ، فيفك رباطه ، ويزيل غلافه ، ويقبل عليه قارئاً ، يلتمس مواده الثمناً .

ويعلم أيضاً في ذلك الوقت أن له كتاباً ظهر قريباً ، يدعى «على أطلال المذهب المادى» . فيقبل عليه . وإذا هو يعرض عليه عالماً جديداً من المعرفة يختلف اختلافاً تاماً عن ذلك العالم الذى كان يعيش فيه ، إذ ذاك ، فى تلك الحلقات ، وبين هاتيك الكتب ، وإذا هو بأسلوب جديد يختلف عن الأساليب التى عدها . فهو أسلوب علمى بموضوعه ودقته أدبى بجمال صياغته ، وحرارة عبارته ، وبذلك كان يجمع بين المتعة الفنية والمتعة العقابية .

وهكذا استولى محمد فريد وجدى على ذلك الشاب ، فهو يحيا أكثر وقته معه ، يقرأ كتبه مرة وحده ، ومع أصدقائه الذين يشاركونه نوازعه الأدبية والفكرية مرة أخرى . فإذا أراد أن يتخذ سبيله إلى الكتابة ، وجد نفسه يجرى فى ميدانه ، معالجاً من الموضوعات ما كان يعالجه ؛ فهو يكتب ذات مرة سلسلة مقالات يجعل عنوانها : « فى عالم الروح » ، ويكتب مرة أخرى سلسلة عن « خطورة الدين ونشأته وتطوره » . إلى غير ذلك من الموضوعات التى كان يستوحىها من ذلك العالم العقلى الذى كان يعيش فيه .

ثم تفتر ، بعض الشيء ، صلة ذلك الشاب به ، بعد أن دخل الجامعة واستهوته أنماط أخرى من الدراسات الأدبية . ولكنه يظل مع ذلك وفياً لتلك الفترة من حياته ، فما يكاد يظهر كتاب له ، أو بحث فى مجلة من المجلات أو صحيفة من الصحف ، حتى يقبل عليه ، ويعود به إلى ذكريات تلك الفترة .

حتى إذا ما أصبح ذلك الشاب شيخاً تسيطر عليه نوازع الحنين ، ولم يكديبقى له من متاع الحياة إلا أن يراجع ماضيه ، ويستعيد أيامه الأولى ويحيط نفسه بصور الذكريات ويستمتع باستجلائها ، ويتزود بطيبتها

فقد أصبحت ذكريات تلك المرحلة ملء خياله، تغاديه وتراوحه ، وتلح عليه إلحاحاً متصلاً أن يحلو للناس تلك الصورة الرائعة التي تتوسطها .

هكذا كان نشأني مع « محمد فريد وجدي » .

فإذا عرض على معهد الدراسات والبحوث العربية أن أشارك في بعض نشاطه ، مثلت أمامي تلك الصورة تحف بها ذكريات عزيزة . ولكن يتعاضمني أمر درسها ، وجعلها موضوع محاضراتي في هذا المعهد فما أبعد الفرق بين الشيء تستمتع بذكره ، وبينه موضوع درس جامد وتحليل دقيق واستقصاء تام .

ويدور حوار طويل في نفسي بين الاستجابة لإلحاح الرغبة السكائمة في أطواء هذه النفس ، والمبادرة إلى تحقيقها ، وبين الانتظار حتى تتوفر لي أدوات البحث ووسائله . ولكني أراني أخيراً أردد كلمة برونيتير : إن المرء لن يفعل شيئاً إذا هو ظل ينتظر دائماً .

فأبادر إلى جعل « محمد فريد وجدي » موضوع محاضراتي ، ويتيح لي هذا أن أعود إلى مصاحبته في مراحل حياته ، حتى يبلغ الحادية والثلاثين من عمره ، راجياً أن أصحبه في سائرهما في العام القادم إن شاء الله ، هو وحده ولي العون والهادي إلى سواء السبيل .

المقدمة

دراسة شخصيات الرواد في النهضة الإسلامية والعربية الحديثة تعد من أول الدراسات التي عني هذا المعهد بها ، وتوفر عدد غير قليل من أساتذته عليها ، إذ تسهم — إلى حد بعيد — في تحقيق رسالته ، وإلقاء الضوء على جوانب هذه النهضة . وقد شارك بقسط غير صغير في هذا الوجه من وجوه جلاء الشخصية العربية ، بما قدم من دراسات فيه ، تتناول في غير واحدة من جهاته ، وفي عدد من أقطار العروبة .

والشخصية التي نرجو أن نتوفر على درسها ، أو درس بعض جوانبها هذا العام ، هي شخصية رجل من أقوى هؤلاء الرواد ، في جهات مختلفة وإن كان أول هذه الجهات وأقواها وأشدّها سيطرة على سائرهما هو الإصلاح الديني . وكان له فيه رأيه ومنهجه ووجهة نظره . وقد جمع له نفسه ، وأخلصها له ، وأمدّها من أجله بكل ما استطاع أن يمدّها به . ولبث على ذلك طيلة حياته ، منذ استطاع أن يمسك بالقلم ، ويخرج على الناس في صورة الكاتب الباحث . في أواخر القرن التاسع عشر . إلى أن غلبته السن ، فأخذ إلى الراحة ، وانقطع عن الحياة العامة ، قبيل وفاته سنة ١٩٥٤ .

وبالرغم من هذه الحياة الطويلة الحافلة بألوان النشاط والتي كادت تبلغ الستين عاماً ، وبالرغم مما كان لصاحبها من صوت مدو في كثير من مجالات الحياة الدينية والعقلية والاجتماعية — إذ نحن تجاوزنا مشاركته المحدودة في الحياة السياسية — في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . وبالرغم من المكانة التي كان يتمتع بها في كثير من

الايواساط الدينية والعلمية ، فإن ضجيج الحياة الصاخبة المضطربة بعد نهاية الحرب العالمية الاولى ، وهو الضجيج الذى سيطر على كل نواحي الحياة المصرية ، وغلب على كثير من الأصوات التى كانت تتردد أصدائها — من قبل — فى كل مكان ، طغى على ذلك الصوت الوقور المتزن الذى كان ملء الأسماع ، صوت محمد فريد وجدى ، وإن ظل مع ذلك مشاركاً مشاركة جادة فى كثير من ألوان النشاط ، مؤدياً واجبه فى الإدلاء برأيه والاحتجاج له ، كاتباً بارع العبارة قوى الحججة مبسوط الأداء .

ذلك أن الرجل كان — بالرغم من كل هذا الذى ذكرنا من مشاركته فى ألوان النشاط المختلفة فى حياتنا المصرية — ذا طبيعة انعزالية من طراز خاص . ولعله يتاح لنا ، فى هذه الدراسة ان نتبين حقيقة الانعزالية وأسبابها وعواملها ، وأن نتعرف إلى بعض مظاهرها . وهذه الانعزالية كانت فيما يحسب من أسباب ذلك النطاق الذى ضربه النسيان عليه ، وما يزال يغشى حياته شيئاً فشيئاً ، حتى انتهت تلك الحياة . وما يكاد أحد من أبناء هذا الجيل يعرف من ملامح هذه الحياة شيئاً إلا ما قد يتناثر هنا وهناك من أقوال عارضة ، أو كلمات شاردة .

ونعنى بالانعزالية الرجل أنه كان يعيش فى عالمه العقلى بما فيه من مثل وآراء ومبادئ أكثر مما يعيش فى عالمه الخارجى . بل نحسب أنه كان يحاول دائماً أن يخضع هذا العالم الخارجى لعالمه العقلى أو على الأقل يحاول التوفيق بينهما . وبديهي أنه لم يكن غافلاً عن العالم الخارجى أو جاهلاً بشئونه وأحداثه ، بل كان يعرفه كل المعرفة ، بجميع دقائقه وأسراره ولولا ذلك ما حاول أن يخضعه لعالمه العقلى . مطبقاً عليه آراءه ومبادئه .

وقد عرض الأستاذ عباس محمود العقاد صوراً لطيفة من هذه الانعزالية ، ولم

يكن الرجل قد دخل بعد نطاق النسيان . بل في الوقت الذي كان فيه من أصحاب الاصوات العالية في كثير من الأوساط . ومن ذوى الشهرة الغالبة في المجتمع المصرى والإسلامى عامة ، وقد جاءت هذه الصورة في سياق الفصل الذى كتبته عنه ، بين الفصول التى كان يكتبها في مجلة « المجلة » بعنوان : (رجال عرقهم)^(١) . وقد استهل هذا الفصل بقوله :

« هو فريد عصره غير مدافع ... وتلك كلمة مألوفة طالت ألفتها حتى رثت وبليت وأصبحت حروفاً بلا معنى ... وإطالما قيلت في عشرات من حلة الأقلام في عصر واحد ، كلم فريد عصره ، وكلهم واحد من جماعة تعد بالعشرات ، فلا معنى لها في باب العدد ولا في باب الصفات ، ولا سيما صفات الرجحان والامتياز . إلا أننا نقولها اليوم عن « محمد فريد وجدى » ، لنعيد إليها معناها الذى يصدق على الصفة حرفاً حرفاً ولا ينحرف عنها قليلاً ولا كثيراً حتى في لغة المجاز .

فقد عرفنا في عصره طائفة غير قليلة من حلة الأقلام ، ورجال الحياة العامة . فلم نعرف أحداً منهم يماثله في طابعه الذى انفرد به ، في حياته الخاصة والعامة ، وفي خلقه وتفكيره ، وفي معيشته اليومية أو معيشته الروحية . وأوجز ما يقال عنه في هذه الحالات جميعاً أنه لم يخلق في عصره من يتقارب المثل الأعلى والواقع المشهود في سيرته ، كما يتقاربان في سيرة هذا الرجل الفريد » .

أما هذه الصورة التى مثل بها الأستاذ العقاد انعزاله فقد جاءت في قوله :

(١) نشرت هذه الفصول في « كتاب الهلال » ، أكتوبر سنة ١٩٦٣ .

« روى العالم اللغوى الشيخ عبد القادر المغربي، وهو من تلاميذ السيد جمال الدين الأفغانى ، أن السيد عرض عليه الزواج ، فقال . إن جمال الدين ، وهو متزوج ورب أسرة وصاحب بيت يأوى إليه بين أهله وبنيه صورة من صور الخيال ، أغرب من صورة الشيخ عlish ، وهو يسعى إلى الأزبكية ، ليجلس إلى حانة من حاناتها ، ويصفق بيديه يستدعى الجرسون ، ليأمره بسؤال من حوله عما يطلبونه من مشارب الحانات .

أقول: لئننى قد رأيت بنفسى فى الواقع ما هو أغرب من هاتين الصورتين وهو منظر الأستاذ محمد فريد و جدى يتمشى فى قلب الأزبكية بين المتاجر والحانات ، وهى لا تدرى من هذا الذى يغيب فى أطوائها بين هذا الزحام ولعله هو أيضاً لا يدرى أن هذه هى الأزبكية ، إلا كما يدرى الطيف فى الصور المتحركة أين يضعه المخرجون بين مشاهد الأفلام .

فقد كان السير على الأقدام من رياضات الرجل قبيل الأصيل كل نهار فكان يمضى فى رياضته حيث ساقته قدماه ، تارة إلى مفازة الخلاء ، وتارة أخرى إلى حى السكة الجديدة ، وحيناً إلى قصر النيل ، وحيناً آخر إلى شارع جلال أو عماد الدين ، لا يحس من يراه فى مكان من هذه الأماكن ، وهو ينظر إلى ملامح وجهه ، أنه يفرق بين مكان منها ومكان سواه ، كأنه - لانطوائه على نفسه - يتمشى فى عالم السريرة ، ولا يتمشى فى عالم العيان . . . إلى آخر هذه الصورة الطريفة التى يجلوها فن العقاد ، التى علق عليها بقوله :

« لئننى اليوم لأشعر أنه منظر عجب غاية العجب . منظر أعجب من منظر جمال الدين رب الأسرة والدار ، أو منظر الشيخ عlish جليس القهوة والبار » .

ومهما يكن من أمر هذه الصورة ، ومبلغ ما فيها من غفلة الرجل عما

حوله ، واستغراقه في نفسه ، من مطابقة للحقيقة ، أو انحراف عنها ، استسلاما للنزعة الفنية في تصويرها ، فإنها تقدم إلينا — على كل حال — صورة من انعزاليته أو إنطوائيته .

ولإذا كان لهذه الانعزالية ، بالمعنى الذى حررناه وأوجزنا شرحه قبل قليل ، مظاهرها في حياته اليومية ، على النحو الذى يذكره الأستاذ العقاد ، فقد كان لها مظاهرها في حياته العامة ، كما كان لها - ولاريب - أثرها في تكاثف ستار النسيان حوله يوما بعد يوم .

لقد نشأ ، وهو بعد في أوائل شبابه ، حيث سلطان اللهو والجري مع متع الحياة غالب شديد ، على إثارة عالمه العقلى على ما يخرجه العالم الخارجى من متع ولذائد ، كما نرى مصداق ذلك في بعض ما كتبه في كتابه الأول : « الفلسفة الحق في بدائع الآكوان » . وهو لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره . على النحو الذى نتيبنه ، إن شاء الله ، عندما نعرض للحديث عن هذا الكتاب .

ولعل هذا ، أو ما هو بسبيل منه ، هو الذى صرفه عن الانتظام في الدراسة المدرسية ، ونيل درجاتها ، مع ما تؤهل له من مناصب الدولة . بل لقد أتيح له - كما يذكرك ذلك بعض من كتبوا عقب وفاته - أن يصبح موظفاً في وزارة الأوقاف مرة ، وفي ديوان الخديوى مرة أخرى ، ولكنه لم يلبث في كل من هذه الوظيفة وتلك أن ضاق بها واعتزلها ، وانصرف إلى عالمه الذى يؤثره ولا يكاد يرى سواه^(١) .

وقد دخل الحياة العامة في أوسع صورها ، حين استطاعت مبادئ الحزب الوطنى أن تجتذبه إليها ، فإذا هو عضو من أعضاء ذلك الحزب ،

(١) ذكر تعيينه في الوظيفة الأولى عبد الحميد جلال (مضى قديماً) ، كما ذكر الحاقه بالثانية محمد يوسف خليفة . ولم نعرف ذلك عند أحد غيرهما . وسنشير إلى مقالتهما بعد .

وإذا هو يصدر جريدة الدستور التي كان الناس ينظرون إليها على أنها اللسان الثاني للحزب ، بعد جريدة الوفاء لسانه الأول ، وجدير بهذه الصفة أن تضفي عليه غير قليل من الجاه . ولكن هذا الجاه أمر لا قدر له عنده ولا وزن له بإزاء المبادئ والمثل التي تعيش في عالمه العقلي . فها هو ذا يختلف مع رئيس الحزب ولجنته الإدارية ، في أمر من الأمور التي تمس المبدأ ، ويصر على رأيه ، ويفتر بسبب ذلك ما بينه وبين الحزب ، ويفسد ما بينه وبين كثير من أشياعه وأتباعه ، وتتأثر بذلك صحيفته ، ويتعرض ذلك الجاه للتراجع ، ولكنه لا يعبا ، ويمضى في طريقه ، وليكن ما يكون .

ويقع ذلك الخلاف بين الخديوي عباس حلمي الثاني ، ونقيب الأشراف السيد محمد توفيق البكري ، لمنعه خروج أصحاب الطرق الصوفية بمواكبهم للمشاركة في أحد الاحتفالات ، فيقف وحده في ذلك الخلاف ، بجانب السيد توفيق البكري ، وقد تخلت جميع الصحف والهيئات عنه ، انتصاراً لما يراه من بدعة المواكب الصوفية وإشراكها في الحفلات والأعياد . وهو يعلم أنه يعرض نفسه بذلك لغضب القصر وكيد له ، وليس له في الحزب ركن ركين يعتصم به ، ولكنه لا يعبا ، مادام يتصرف في حدود المبدأ المائل في عالمه العقلي . ويرسل إليه السيد توفيق البكري مبلغاً من المال ، مكافأة له على هذا الموقف . وكانت الجريدة تعاني أزمة مالية شديدة ولكن هذه الأزمة لا تكاد تعنيه في شيء بقدر ما يعنيه عالمه العقلي الذي يصدر عنه . فلا يفعل أكثر من أن يأخذ من هذا المبلغ قيمة الاشتراك في الدستور . ويرد الباقي إليه .

ويقع الانقلاب العثماني ، ويحتاج حزب تركيا الفتاة ، وهو الحزب الذي طالما نوهت به جريدة الدستور ، إلى صحيفة تكون لسانه في العالم العربي ، ويقع اختباره على جريدة الدستور لمكانة صاحبها في العالم الإسلامي ، ولما يعلم من حسن رأيه فيه . ولعله كان يقدر أيضاً الموقف

المالى الذى كانت تعانيه ، فيبحث إلى محمد فريد وجدى من يعرض ذلك عليه ، لقاء مبلغ شهرى كبير . ولكنه يرى فى هذا العرض شيئاً ياباه عالمه العقلى ، وإن كانت اعتبارات العالم الخارجى ترحب به ، فلا يلبث أن يرفضه .

وهكذا كان اعتزازه بمبدأه ورأيه وعقيدته ، أو بعالمه العقلى الذى نشأ قوى الصلة به ، كبير الوفاء له . وهكذا كانت مغالاته بهذا العالم ، بحيث تضعه فوق كل اعتبار ، ولو تجرد فى سبيل ذلك من كل سلطان ، وتخل عنه كل ذى منزلة أو جاه .

ويحدث ذلك التطور الكبير فى المجتمع المصرى بعد الحرب العالمية الأولى ؛ ويمضى ذلك التطور حيث الخطى ؛ ويصبح الكلام عن حجاب المرأة أضحوكة ؛ وأشد الأقوال أثارة للسخرية ومبعثاً للتهكم ؛ وتضيق فى ذلك حقائق الأمور وتنهم حدودها ؛ ويكتب «الصحنى العجوز» ذات يوم من أيام سنة ١٩٣٢ مقالا فى جريدة الأهرام يتحدث فيه عن الحركة النسائية ، ويذكر كتاب محمد فريد وجدى : « المرأة المسلمة » ؛ ويصفه بأنه ضد تعليم المرأة وتطورها ؛ فينبهى للرد عليه ، منكرأ فريته الغليظة أنه كان يدعو إلى عدم تعليم المرأة ؛ مستنداً إلى فقرات من كتابه . وأما سفور المرأة فيقول عنه فى رده هذا : « أما عدم سفورها فانا لا ازال أقول به وقد زدت شدة عما كنت عليه أضعافاً مضاعفة » .

فها هو ذا لايبالى ؛ هنا أيضاً ؛ بسلطان رأى العام ؛ وأى سلطان هو !

وهكذا انقطع ما بين الرجل ومعاصريه ؛ وما زال الحجاب الذى يقوم بينه وبينهم يكثف يوماً بعد يوم ، حتى قضى نحبه ولا يكاد يذكره أحد ، إما جهلاً بآثاره ووجوه نشاطه التى كانت يوماً من الأيام

ملء السمع والبصر ، ومهوى العقول والقلوب ؛ فى أكثر البيئات الأدبية وأما لأنه لم يعد يثير فى نفوس أبناء جيله ، أو تلاميذه ومريديه ، ما يحفز على الكتابة عنه ، والتنويه به . وقد أشار الأستاذ العقاد فى ختام ذلك الفصل إلى هذا الذى صارت إليه ذكراه ، فقال : « إن يكن اليوم لا يذكر حق ذكراه ، فما هو بالخول ، ولا هو بالقصور عن حق الخلود ، ولكنه يعيش فى عزلة عن دنيا التاريخ ، كما عاش أيامه فى عزلة عن دنيا الحياة ، .

وإذا كانت عزلته عن دنيا الحياة أمراً لا حيلة لأحد فيه ، إذ يرجع إلى طائفة من الأسباب التى جعلته حتماً مقضياً . ثم هو - بعد ذلك - كان جزءاً من ملامح حياته ، وقسمات شخصيته ، ولعله كان - فى الوقت نفسه - من أول حوافزه ومثيرات نشاطه فى أداء ما رأى نفسه مهياً له ، موجهاً إليه إذ أخلصه له ؛ ووفرة عليه ؛ فإن عزلته عن دنيا التاريخ أمر لا مساغ له فيما يجب علينا لقاء حياتنا الأدبية ؛ وتاريخنا العقلى ، ومثلنا القومية . وهوائهم كبير لا ريب أننا نحمل جريرته ونبوء بتبعته مادما نستطيع أن نخرجه من هذه العزلة ؛ فنجلو بذلك صفحة محيدة من صفحات حياتنا العقلية والأدبية .

على أن درس حياة محمد فريد وجدى على الوجه الذى يرسمه المنهج العلمى ؛ بما يتطلب من تقص للعوامل المختلفة التى رسمت لهذه الحياة طريقها ، ووضعت لها حدودها ، والأسباب التى وجهتها ، والملازمات التى لاستها ، قريبة وبعيدة ، حاضرة وغائبة ، دقيقة وجليلة ؛ ليس أمر يسيراً فليس بين أيدينا كبير شئ مما تقوم به هذه الدراسة .

لم يجر الرجل على السنة التى جرى عليها كثير من العلماء والأدباء ؛ إذ يسجلون حياتهم فى مذكرات يدونونها ؛ أو ترجمة ذاتية يكتبونها ؛ أو يعرضون

لكثير من صور هذه الحياة لبعض المناسبات التي تعرض خلال كتاباتهم فكنا نستطيع أن نجد في ذلك مادة نستمدّها في رسم صورة دقيقة الملامح والقسّات من هذه الحياة ، كما يمكن أن نتعرف بها إلى كثير من أصولها وعللها . فقد كان الرجل - فيما يبدو - عزوفاً - عن أن يشغل الناس بشخصه ، منصرفاً إلى ما توفّر عليه ورآه غايته الكبرى من الدعوة إلى الإصلاح الديني ؛ وتحقيق مقومات الشخصية الإسلامية ؛ في الصورة التي يراها ويؤمن بها^(١).

كما لم يعن أصحابه وتلاميذه ومريدوه عناية كافية ، بالكتابة عنه ؛ ورسم بعض صور حياته التي اتبحت لهم والحديث عن ملاسبات نشاطه واتجاهاته ، مما يعين على درسه ؛ وإنما هي فصول قصيرة قليلة في جملتها يحسن أن نشير إلى ما وقفنا عليه منها :

فأول ذلك فصل كتبه « مجلة المجلات العربية » التي كان يصدرها في القاهرة « محمود بك حسيب ، العضو بنادى المدارس العليا ، والعضو بالحزب الوطنى » . في جزء ديسمبر سنة ١٩٠٧ وذلك بمناسبة صدور جريدة الدستور (في ١٦ نوفمبر سنة ١٩٠٧) .

وقيمة هذا الفصل فيما أورده من بعض البيانات المقتضبة عن نشأة محمد فريد وجدى الاولى ، مما لم يقع لنا في موضع آخر . وإن لاحظنا أنه لا يلتزم الدقّة في بعض التواريخ التي أوردها ، كما سنرى ذلك فيما بعد .

ثم لانكاد نظفر بعد ذلك بشيء ، في حياة الرجل ؛ إلا ما كانت تورده

(١) من المواضع القليلة التي استطرّد فيها للحديث عن نفسه ، بعض مقالاته التي كتبها في الدستور عن مصطفى كامل ، عقب موته ، فعرض فيها للتاريخ علاقته به ، ورسم فيها بعض صور هذه العلاقة .

أحياناً بعض المجلات الأسبوعية الخفيفة ، بما كانت تقصد به إطراف قرائها، إلى أن قضى نحباً في السادس من شهر فبراير سنة ١٩٥٤ .

وقد مرت وفاته في صمت مطلق ؛ وسكون مطبق : لم يكد يشعر أحد بموته . وإنما هو نعى صغير في بضعة أسطر نشرته جريدة الأهرام في صفحة الوفيات . « ينعاها — فيه — إلى المسلمين ابن عمته محمد بدر الدين وأصحابه أسرة الحلفاوى . . . » ويذكر موعد تشييع الجنازة :
« الثالثة والنصف من منزله رقم ٥ شارع إسماعيل باشا سري بالمينيرة » .

ولا يبدو أن هذا النعى المتواضع قد أثار شيئاً في جو الصمت المطلق حتى العاشر من شهر فبراير . إذ نشرت جريدة الأهرام فصلاً قصيراً بإمضاء « محمد يوسف خليفة » وكان ، فيما يبدو من سياق حديثه ، من أصحاب محمد فريد وجدى أو جلسائه ، وقد تضمن هذا الفصل بعض البيانات التي تحتاج إلى تحقيق .

كما نشر الأستاذ كامل الشناوى في الأخبار كلبة عنه تساءل فيها : كيف يموت ولا يشعر به أحد ؟ هل لأننا لا نقدر العلم والفلسفة والخلق أم ترانا لم نشعر بفقده لكثرة ما عندنا من علماء وفلاسفة وأصحاب أخلاق .

وفي الثالث عشر من هذا الشهر تنشر جريدة أخبار اليوم مقالا عنه للأستاذ عباس محمود العقاد ، وكان لم يعلم نبأ وفاته إلا من كلبة الأستاذ الشناوى . وقد تحدث عن « العالم الراحل » حديث الذكريات : ذكريات صلاته به وعمله معه . وحديث الأسى والتقدير .

ثم تنشر الأهرام في السابع عشر من فبراير مقالا للأستاذ محمد عبد الغنى حسن . يتحدث فيه عن مكانته في العالم الإسلامى ، ويذكر آراء بعض العلماء المستشرقين فيه ، كما يسرد أسماء طائفة من كتبه .

وفي أول أبريل من هذا العام تشر جريدة المصرى فصلا آخر
بإمضاء : « عبد الحميد جلال - صحفى قديم » ضمنه طائفة من ذكرياته
فى عهود مختلفة .

وبعد هذه المقالات الصحفية التى كتبت فى عجلة، وبعد هذه الهمسات
والأصوات المتقطعة الخافتة التى يبدوا أنها ضاعت فى ضجيج الحياة، عاد
الصمت مرة أخرى؛ إلى أن أعادت دار الهلال طبع كتابه : « الإسلام
دين عام خالد » - باسم : الإسلام دين الهداية والإصلاح - فى شهر
نوفمبر سنة ١٩٦٢، وقدم له الأستاذ طاهر الطناحى بكلمة تضمنت
بعض ما حدث به عن نفسه .

ثم نشرت مجلة « المجلة » فى شهر مارس سنة ١٩٦٣ - فى سلسلة من
المقالات التى كان يكتبها الأستاذ عباس محمود العقاد عن بعض الشخصيات
التي عرفها، بعنوان : رجال عرقهم - مقالا عن محمد فريد وجدى .
(وقد نشرت هذه المقالات بعد ذلك مجمعة فى سلسلة كتاب الهلال
أكتوبر سنة ١٩٦٣) .

كما جعل الأستاذ العقاد يعرض للحديث عنه، فى غير موضع، فى سياق
حديثه عن حياته، فى كتابيه « أنا، و « حياة قلم » (١) .

فهذه جملة ما وقفنا عليه مما يتصل بالحديث عن محمد فريد وجدى.
وهو - على قلته واقتضابه واضطراب بعضه - مما لا يمكن إغفاله
لأنه - على كل حال - يصف بعض الملامح ويضع بعض اللمسات .
ولكنه بعيد عن الكفاية فيما يقصد إليه الباحث من كتابة سيرة عليّة

(١) كتاب الهلال، يولي وديسمبر، سنة ١٩٦٤ .

واضحة للملامح بينة القسمات تتغلغل وراء العلل والأسباب وتتقصى الظروف والملاسمات . وخاصة لأن تاريخنا العقلى فى هذه الفترة لا يزال الغموض يكتنفه والإبهام يسوده ، فهو لم يدرس بعد دراسة شاملة دقيقة توضح معالمه وتبين وجوهه ، وما تزال آثاره مشتتة فى مختلف المصادر ، وفى شتى الصحف والمجلات .

ومهما يكن من أمر فإننا نرجو أن يكون فى الصورة العقلية التى نود أن نستجليها بمراجعة آثار محمد فريد وجدى العلية والأدبية ما قد يكفيننا الآن فيما نقصد إليه ، إلى جانب ما يتاح لنا من رسم الخطوط العامة لحياته ، والملامح الرئيسية لشخصيته ، وأكبر الظن أننا واجدون فى هذه الصورة العقلية ما يلقي شيئاً من الضوء على حياته الشخصية .

ولعلنا نستطيع — بعد أن ننتهى من كتابة سيرته أو نسق حياته — أن نتفرغ لدراسة جوانب شخصيته : مصلحاً دينياً واجتماعياً ، وعالمياً موسوعياً ، وأديباً بارع العبارة واسع الاقتنان فى الكتابة والشعر .

والله ولى العون والتوفيق والسداد

- ١ -

ولد محمد فريد وجدى فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وإن اختلف بعد فى تعيين سنة مولده . فهناك من جعلها سنة ١٨٧٨ ، وهناك من تأخر بها عن هذا التاريخ ثلاث سنين ، فجعلها سنة ١٨٧٥ . ذكر التاريخ الأول محمد يوسف خليفة ، فى المقال الذى نشره عنه بعد وفاته فى جريدة الأهرام ، والذى أشرنا إليه فى المقدمة ، وبه أخذ الأستاذ الزركلى فيما ترجم به له فى كتاب الأعلام ، وذكرت التاريخ الثانى مجلة المجلات العربية فى ذلك الفصل الذى أشرنا إليه أيضاً ، وهو الذى أخذ به الأستاذ حسن عبد الوهاب .

وليس لنا بين هذين التاريخين إلا أن نحاول الموازنة بينهما ، ونلتمس الأسباب التى قد ترجح الواحد منها على الآخر .

وقد يكون مما يرجح التاريخ الثانى الذى ذكرته مجلة المجلات العربية — بادية رأى — أنها أقرب عهداً ، وأدنى بالمترجم له صلة .

ولكننا لاحظنا فى ذلك الفصل الذى كتبته هذه المجلة أنها لا تتحرى الدقة فى الأرقام خاصة . من ذلك ما ذكرته عن تاريخ كتابه : « الفلسفة الحققة فى بدائع الأكوان » — وهو أول كتاب ألفه — فقد ذكرت أنه ألفه سنة ١٣١٧ هجرية . وهو تاريخ يخالف التاريخ المقطوع به ، كما جاء فى خاتمة الطبع المدونة فى آخر ذلك الكتاب . وقد سجل فيها أن تاريخ الانتهاء من الطبع هو « أواسط شهر جمادى الثانية سنة ألف وثلاثمائة وثلاثة عشر من هجرة سيد الأنعام » ، إلى غير ذلك من الخلط فى بعض التواريخ التى يذكرها فى نسق نشأته الأولى ، مما يدفع الثقة بها فى هذه (٢٢ — محمد فريد)

الناحية ، ويجعلنا لا نسلم بما توردته فيها . وإن بدا أول الأمر أنه أولى بالتسليم .

فقد وجب إذن أن نلتمس مرجحاً آخر . وبالرغم مما نعرفه عن محمد فريد وجدى أنه قليل الحديث عن نفسه ، كما ذكرنا من قبل ، إلا أننا رجونا أن نجد في كلامه ما يدل على ترجيح أحد التاريخين على الآخر .

وقد أتبع لنا من هذا القليل ما حكاه عن نفسه في الفصل الذى كتبه عن « الرؤيا » فى « دائرة معارف القرن العشرين » . فقد ذكر انه وهو فى العشرين من عمره ، رأى فيما يرى النائم كأنه عضو فى مؤتمر ، وكان على كل عضو من أعضائه أن يخطب فى أمر ، فلما انتهى إليه الدور ، ووجب أن يقوم خطيباً ، فكر فى موضوع خطابه ، وفى اللغة التى يخطب بها . أما اللغة فقد اختار العربية على التركية والفرنسية . وأما الموضوع فكان المدنية الإسلامية ، وكان التفسير فيها شغله الشاغل ، فيما أن انتهى من خطبته حتى نظر إليه أحد المؤتمرين وكان - كما يقول - « لا بساً طربوشاً علامة على أنه مسلم » ، وسأله بلحن المنكر : هل المدنية الإسلامية كما ذكرت ؟ فرد عليه بقوة : نعم ! فرد عليه قائلاً : أنا لا أعتقد ذلك .

يقول محمد فريد وجدى بعد حكاية هذه الرؤيا : « ومضى على ذلك نحو من سنة ، واتفق أن المرحوم قاسم بك أمين نشر كتاباً تحت عنوان (تحرير المرأة) ، ذهب فيه إلى وجوب خلع المرأة المسلمة الحجاب ، فانبريت للرد عليه فى جريدة المؤيد ، ونال هذا الرد من جمهور القارئین إعجاباً عظيماً ... ، إلى آخر ما ذكره فى هذا ، وليس يعنينا منه هنا إلا دلالة فيما نحن بصدده من تاريخ مولده .

فهو يذكر أنه كان فى العشرين من عمره حين رأى تلك الرؤيا ،

وأن ذلك كان قبل أن ينشر كتاب تحرير المرأة لقاسم أمين بعام . فإذا علمنا أن هذا الكتاب نشر سنة ١٨٩٩ ، فقد كان في سن العشرين سنة ١٨٩٨ . أى أن مولده ينبغي أن يكون سنة ١٨٧٨ . وبذلك يرجح القول الأول .

ويتفق هذا مع ما ذكره الأستاذ طاهر الطناحى ، فيما كتبه عنه في المقدمة لكتابه الذى نشر باسم « الإسلام دين الهداية والإصلاح » - كما أشرنا إلى ذلك من قبل - إذ يقول ، وهو يتحدث عن بعض وجوه صلته به . وعن تاريخ هذه الصلة :

« وقد كان غزير المادة نفيس الإنتاج ، فكنت أظنه - قبل معرفتي به سنة ١٩٣٠ - أنه شيخ جاوز الستين ، ولكنى دهشت حين علمت منه أنه لم يتجاوز الثانية والخمسين » .

فذلك هو تاريخ مولده . أما مكانه فكان مدينة الإسكندرية ، على ما تذكره مجلة المجلات العربية ، في الفصل الذى أشرنا إليه .

وفى الإسكندرية كانت نشأته الأولى ، فى أسرته التى يؤسفنا أننا لا نكاد نعرف عنها كبير شئ ، وفى المدارس التى تلقى تعليمه فيها . وقد ذكر ذلك الفصل أسماء ثلاث مدارس التحق بها منذ طفولته : مدرسة إسماعيل أفندى حقى ، ومدرسة حمزة قبطان ، ومدرسة مسيو فالو . كما ذكر أنه أدخل المدرسة الأولى وهو فى الرابعة من عمره ، فأمضى بها أربعة أعوام ، ثم انتقل منها إلى المدرسة الثانية ، وبقي فيها حتى أتقن القراءة والكتابة ، ثم تحول بعد ذلك إلى المدرسة الثالثة ، وظل بها إلى أن نقل أبوه ، مصطفى بك وجدى ، إلى مدينة القاهرة ، وكان إذ ذاك فى السن

التي ترشحه لدخول المدرسة التحضيرية ، أو في نحو الرابعة عشرة من عمره ، فيما نقدر (١) .

وكان علينا أن نتعرف إلى العوامل الأولى التي تعرض لتأثيرها في هذه المرحلة من حياته ، فلا ريب عندنا في أن الخيوط الأولى في نسيج حياته أخذت تتكون فيها ، وأن الخطوط الكبرى في ملامح شخصيته جعلت ترتسم في خلالها . ولكننا لا نكاد نظفر بما هو بسبيل من ذلك - بالرغم من معاصرته - بشيء ذى بال .

إنما هي صورة الأحداث الكبرى التي تعرضت لها مدينة الإسكندرية منذ أخذت مداركه تتفتح ويبدأ حياته المدرسية . والتي نفترض - بالضرورة - أنه كان لها أثرها في خياله ، أو في رواسب حياته ، ونعني بها أحداث الاحتلال الإنجليزي ، منذ قدوم الأسطول البريطاني الفرنسي وإرسائه بميناء الإسكندرية ، في أواسط مايو سنة ١٨٨٢ ، يفشر الفزع ويثير مشاعر السخط والغضب ، ويبتث الإشاعات من كل لون ، وفي كل جانب ؛ إلى المذابح التي دبرها السير مالت ، المعتمد البريطاني ، والمستر كوكسن ، قنصل الإنجليز في الإسكندرية ، والحديوى توفيق ، في الحادى عشر من يونية ؛ وما ترتب عليهما من اشتداد التوتر بين المسلمين والأوربيين ؛ إلى ضرب الإسكندرية بمدافع الأسطول ، والحرائق التي نشبت عنه وصاحبته ، والفوضى الشديدة التي سادت المدينة ، وحركة الهجرة التي نستطيع أن نرى صورة واضحة منها فيما كتبه الأستاذ الإمام الشيخ

(١) ذكرت هذه المجلة أنه ترك الإسكندرية إلى القاهرة سنة ١٨٨٢ ، ومعنى هذا ، مع ما ذكرت من أنه ولد سنة ١٨٧٥ ، أنه كان إذ ذاك في سن السابعة ، وأنه ، وهو في هذه السن ، كان قد مر بالمدراس الثلاث على الصورة التي ذكرتها . وتلك صورة من صور الخلط في الأرقام والتواريخ ، كما أشرنا إلى ذلك قبل . والذي نفترضه أن ترك الإسكندرية إلى القاهرة كان سنة ١٨٩٢ .

محمد عبده عنها في مذكراته، إلى غير ذلك من مشاهد الاحتلال ومنكراته والأصداء المختلفة التي كانت تتردد عنه ، وما كان يثيره ذلك كله في نفوس الناس وأحاسيسهم وأحاديثهم .

ومثل ذلك لا يمكن إلا أن يكون له أثره في خيال ذلك الطفل أو الصبي الناشئ . وإلا أن تتجاوب نفسه الغضة ببعض أصدائه التي كانت تتردد في بيئته الصغيرة . وإن كنا لا نستطيع أن نعرف كيف كانت صور هذه الأصداء ، وعلى أى نحو كانت تتجاوب في نفسه (١) .

لقد كانت هذه المرحلة الأولى من حياة محمد فريد وجدى تمثل في الحياة المصرية الصراع بين الشخصية الإسلامية المصرية والاستعمار الإنجليزي . وكان هذا الصراع أقوى ما يكون - أول أمره على الأقل - في مدينة الإسكندرية ، فهي التي تلقت الصدمة الأولى ، وهي التي استهدفت لكثير من نتائجها ، وتعرضت لكثير من ردود فعلها ؛ وجدير بذلك أن يكون له أثره في إرهاب مشاعره ، وفتيح مداركه ، وتكوين شخصيته .

ذلك هو الجو العام الذى تعرض صبينا له في أوائل حياته ، في مدينة الإسكندرية ، ومهما يكن من أمر تأثره به ، فإنه - على كل حال - تأثر غير مباشر .

أما العوامل المباشرة التي تتمثل في البيئات المختلفة التي عاش فيها ، في البيت ، وفي المدرسة ، وفي الشارع ، فلا تسكاد نعلم عنها إلا أنه نشأ في

(١) ترى أكان لهذه الانفعالات بهذه الأحداث أثرها في رأيه في الثورة العربية : أنها حركة طائشة ، دبرتها الدسائس الأجنبية ، للقضاء على الحركة الوطنية التي كانت ماتزال تشتد حتى وصلت لأرقى مظاهرها في عهد الخديوى توفيق ، وانها ليست من الحركة الوطنية و شئ الا كما يكون الخيال من الحقيقة ، كما يقول ذلك في مقالاته التي افتتح بها جريدته الدستور؟ (١٦ نوفمبر سنة ١٩٠٢) .

أسرة تركية الأصل، فيما يغلب على الظن. من أسر الطبقة الوسطى، فهي أسرة محافظة، وأن أباه كان من أوساط الموظفين، ولكنه كان رجلاً معنياً بالعلم، حفيماً بأهله، وكانت له في داره مكتبة تضم الكثير من كتب الدين والأدب وفنون المعرفة المختلفة، بالعربية والفرنسية والتركية، وأنه كان لا يزال يزود هذه المكتبة بالجديد من الكتب والمجلات، وخاصة بعد أن رأى مخايل النجاة والنضج المبكر والطموح العقلي في ابنه الأكبر محمد فريد، وأن مجلسه، شأن مجالس أمثاله من الموظفين المستنيرين، كان يختلف إليه بعض العلماء والمثقفين، يسمرّون فيه، ويتبادلون الحديث في مسائل الدين والموضوعات الثقافية المختلفة. ولعله كان حريصاً على أن يشهد ابنه، بصورة ما، هذه المجالس، حرصه على تكوينه تكويناً عقلياً، وإمداده بما يرضى طموحه، ويتطلبه نبوغه، في حدود الروح المحافظة.

وأما المدارس التي تلقى بها تعليمه في هذه المرحلة، والتي أشرنا منذ قليل إليها؛ فلا تكاد نعلم كبير شيء عن طبيعتها ومناهج التعليم فيها إلا أنها كانت مدارس خاصة كما يدل على ذلك تسميتها بأسماء أصحابها وأنها كانت تظفر بثقة الأسر الموسرة التي كانت تؤثرها في تعليم أولادها على المدارس الحكومية التي كانت تأخذ تلاميذها بنظام شديد صارم، شبه عسكري، وتفرض عليهم طعامها في فترة الظهيرة، فتجسهم بها طول اليوم، ولم يكن ذلك مما يرضاه هذه الأسر لأولادها. وأن مدرسة حمزة قبطان كانت من أشهر مدارس حى رأس التين، وكانت تعنى بتعليم اللغة العربية إلى جانب عنايتها بتعليم اللغة الفرنسية. وفي هذه المدرسة أجاد محمد فريد وجدى القراءة والكتابة. ولأمر ما لم يشأ أبوه أن يلحقه بعد أن أتم تعليمه فيها بمدرسة رأس التين الثانوية، وإنما ألحقه بمدرسة

المسيو فالون الفرنسية^(١). وفي هذه المدرسة أجاد اللغة الفرنسية . وكأنما ظاهر هذه المدرسة في أجادته لها ما كان لهذه اللغة من مكانة ظاهرة في مدينة الإسكندرية ، في مجتمعا وفي الصحف والمجلات والكتب التي كانت تظهر بها فيها . وإن كنا لانعلم المدة التي قضاها في هذه المدرسة وتفصيلات مناهجها وما أتيح له فيها .

ذلك هو مبلغ ما نعلمه عن هذه المرحلة ، مرحلة الإسكندرية ؛ من حياة محمد فريد وجدى . لأنها - على كل حال - المرحلة التي تفتحت فيها مداركه ، والتي استطاع أن يمتلك فيها الإداة اللغوية لإرضاء هذه المدارك وإشباع حاجاتها ، إذ يبدو أنه بلغ من اللغة العربية واللغة الفرنسية المبلغ الذى يمكنه من القراءة والفهم والتأمل والتعبير .

وكانت الإسكندرية في هذه الفترة مركز نشاط أدبي خصب ، بما كان يصدر فيها ؛ وما كان يرد إليها ، من صحف ومجلات مختلفة ، عربية وفرنسية ؛ وأكبر الظن أن صبينا أقبل عليها ، قدر ما كانت تمكنه تلك الإداة اللغوية التي كانت ما تزال تطوع له كلها ازداد إقباله على القراءة ، كما كان إقباله هذا يزداد كلما ازدادت هذه الأداة طواعية واستجابة . ولو أتيح لنا أن نعرف شيئاً عن مطالعاته هذه المبكرة لكان ذلك كبير الجدوى في معرفة الينابيع الأولى لاتجاهاته العلمية والادبية ، وتتبّع أصول شخصيته العقلية .

ومن هذا القبيل ما يخيّل لنا أن من هذه المجلات التي كانت تعنى

(١) استمرت هذه المدرسة يديرها المسيو فالون Monsieur Valon ومعه ابنته إلى أواخر القرن التاسع عشر ثم نزل عنها الجمعية العروة الوثقى ، في نحو سنة ١٨٩٧ ، كما أخبرني بذلك الاستاذ يوسف فهمى الجزائري

بنشر فصول خيالية فى أسلوب المقامات، كمجلة الراوى التى كان يصدرها بالإسكندرية، فيما بين سنتى ١٨٨٨، ١٨٩٠ خليل زينية، ما كان له أثره فى اتجاهه بعد إلى هذا الفن الذى سنعرض له عنده، إن شاء الله.

ولم يكدمحمد فريد وجدى يبلغ الرابعة عشرة أو نحوها، وكان ذلك سنة ١٨٩٢، كما افترضنا من قبل، حتى كان عليه أن يترك الإسكندرية مع أسرته إلى القاهرة فقد نقل أبوه، مصطفى وجدى بن على رشاد، إليها.

وكان طبيعيا أن يفكر مصطفى وجدى فى الطريق الذى ينبغى أن يسلكه ابنه فى تعليمه، فى القاهرة. ولعلها واجهته باعتبارات جديدة لم يشأ معها أن يستمر فى ذلك النوع من التعليم الذى بدأه فى الإسكندرية وقطع منه مرحلة لا بأس بها، وربما كان إثارة أو اللجوء إليه إذ ذاك لاعتبارات خاصة لديه، أو ظروف خاصة بتلك المدينة؛ وهما هو ذا اليوم بالقاهرة بإزاء ظروف جديدة واعتبارات مختلفة. وأيا كانت هذه الاعتبارات فقد رأى أن يسلك فى تعليم ابنه فى القاهرة الطريق النظامى الذى سنته الدولة، والذى يسلكه نظراؤه وأهل طبقتهم.

وكانت سن الرابعة عشرة التى بلغها ابنه هى السن المعتادة للالتحاق بالمدارس الثانوية (أو التحضيرية، كما كانت تسمى إذ ذاك)، كما يمكن أن نرى ذلك فى مثل أحمد لطفى السيد وعبد العزيز فهمى ومصطفى كامل، ممن تعرف توارىخهم ومراحل حياتهم، ممن تعلموا فى مدارس الدولة.

وهكذا ألحقه أبوه بالمدرسة التوفيقية، إحدى المدارس التحضيرية الثلاث بالقاهرة.

ترى ماذا كان أثر هذا التحول، من ذلك الأسلوب التعليمى الذى

بدأ به في الإسكندرية ، وأمضى عليه عشر سنوات ، إلى هذا الأسلوب الجديد والمنهج المختلف الذى صار إليه في المدرسة التوفيقية بالقاهرة ؟

إذا كانت بيئة القاهرة شيئاً جديداً بالقياس إلى ذلك الفتى القادم من الإسكندرية ، وكانت مشاهد الحياة فيها مغايرة إلى حد بعيد لما ألفه في مدينته الأولى ، وكان لذلك - ولاريب - أثره في إثارة مشاعره ، وحفز تطلعه ، فلا ريب أن أسلوب التعليم في المدرسة التوفيقية كان أشد مغايرة بالقياس إلى ما ألفه في مدارس تلك بالإسكندرية . قد يكون فوق مستواه أو دونه ، ولكنه كان - على أى حال - مختلفاً اختلافاً غير قليل يدعو إلى الحيرة ، ويبعث الاضطراب بين مانشأ عليه وما عليه أن يواجهه منه ، وماذا ينبغي أن يحاوله ليوائم بينه وبينه . وكان ذلك بما دعا أباه - كما يذكر ذلك الفصل الذى نشرته بينه مجلة المجالات العربية - إلى التماس مدرسين خصوصيين يدرسون له فى البيت . وإن كان يعزو ذلك إلى الرغبة فى اختصار مدة الدراسة .

لقد كان لهذه النقلة أثر كبير فى حياة الفتى محمد فريد ، لامن الناحية التى ذكرناها ، وهى الاضطراب بين نظامين ، والحيرة بين أسلوبين ، فحسب ، بل فوق ذلك من ناحية أنها حدثت فى سن التفتح العقلى والتوثب الوجدانى ، فكان لها اثرها فى إثارة مواهبه وحفز ملكاته فلم يعد الامر أمر محاولة الملاءمة والتوفيق بين مانشأ عليه من نظام تعليمى وما عليه أن يواجهه من نظام آخر يريد أن يعقد صلته به ، وإنما انضاف إلى هذا الملاءمة بين ما يدفعه إليه طموحه العقلى وتوثبه الذهنى ، وبين هذه البرامج التعليمية المحدودة الجافة فى المدرسة التوفيقية .

ولإذن فقد أصبح هناك أمران لا أمر واحد يعترضان سبيله إلى تلك البرامج ، ويصدانه عن متابعتها . وكانت موضوعات القراءة الحرة

الطليقة التي يتطلبها توثبه العقلي ، والتي يتطلع إليها في شغف ، والتي كانت معرضة له مبذولة أمامه ، وكانت أدواته اللغوية تقربها إليه ، وتيسرها له ، شديدة الإغراء قوية الاستهواء ، فإذا هو مقبل عليها ، مستغرق فيها ، وهو يحاول في الوقت نفسه ان يرضى أباه بمتابعة برامج الدراسة المدرسية ، وان ضؤلت في عينه وصارت شيئاً تافهاً لا قدر له بالقياس إلى ما أتيج له من تلك القراءات .

ولكنه لا يكاد يأخذ نفسه بذلك ، كما اخذ يألف القاهرة ويقبل على ما فيها من متع عقلية ، حتى كان عليه ان يتركها مع اسرته التي اخذت تستعد للانتقال إلى دمياط ، وقد عين ابوه بها وكيلًا لمحافظة . وكان ذلك — فيما نقدر — بعد نحو عامين من الإقامة بالقاهرة . أى في نحو سنة ١٨٩٤ . وبذلك انقطعت دراسته في المدرسة التوفيقية .

وبذلك تنتهى هذه المرحلة من حياة محمد فريد وجدى ، ليبدأ من بعد مرحلة جديدة ؛ نرى فيها ذلك الفتى الموزع بين واجباته المدرسية وموازع طموحه العقلي ، تنزع به نحو الكتب والمجلات المختلفة . وكأنما قد خلص من هذا التمزق ، وتحرر من تلك القيود التي كانت تثقله ، وفرغ للقراءة الحرة والدراسة الطليقة ، فإذا هو كاتب مؤلف لا يفرغ من كتاب حتى يأخذ في آخر ، ولا ينتهى من فصل حتى يبدأ فصلاً غيره ؛ ولا تكاد تنفعل نفسه بشيء في حياتنا الدينية والعقلية حتى يبادر بكتابة مقال عنه يبحث به إلى هذه الصحيفة أو تلك من صحف القاهرة .

- ٢ -

وتقع هذه المرحلة في فترتين : الأولى في دمياط ، والآخرى في السويس .

ولعلنا واجدون في الحديث الذي حكاه الأستاذ طاهر الطناحي عن الأستاذ محمد فريد وجدى ، والذي يتحدث فيه عن بدء اتجاهه إلى الدراسات الدينية ما يصور لنا أيضاً بدء حياته العقلية في دمياط ، ويبين لنا شيئاً من العوامل التي تعرض لها منذ إقامته فيها ، وكان لها — ولا ريب — أثرها في توجيه حياته ، وتكوين شخصيته . قال :

« كان أهم ما وجهنى إلى البحث في العلوم الدينية حادث الشك في العقيدة ، الذى أدى بى إلى الشك فى كل شىء . حتى فى الدين وعلومه . فقد كنت فى سن السادسة عشرة طالباً فى المدرسة التحضيرية ، وكان أبى مصطفى وجدى موظفاً فى الحكومة المصرية ، وحدث وقتئذ أن اختير وكيلاً لمحافظة دمياط ، فكان لا بد من انتقالى مع عائلتى إلى هذه المدينة التى اشتهر أهلها بدمانة الأخلاق ، والتفقه فى الدين ، وميلهم إلى الآداب .

ولما نزلنا هذه البلدة مع أبى أقبل عليها وكبار أهلها يرحبون به ؛ فكان يجتمع فى دارنا عدد كبير منهم ، وكانت تدور أثناء المجلس عدة مناقشات دينية ، وجدت فيها مجالاً للبحث والتفكير . غير أننى كنت إذا ناقشت أحد العلماء فى مسألة تتعلق بالكون والخلق ، أسرع أبى لقفل باب المناقشة ، وأمرنى ألا أخوض فى المسائل الدينية ، أو أبدى فيها رأياً ، فكنت أمتنع لذلك ، وأرى أن فيه حجراً على العقل بلا مسوغ . وأخذت أبحث عن السبب الذى أدى بهم الى هذا الجمود ، وقلت فى

نفسى : لا بد أن يكون ما يدرسونه من الكتب عقيماً .. ومن هنا تزلزلت عقيدتى ، وشرع الشك يتسرب إلى نفسى ، حتى صرت لا أرتاح إلى رأى واحد يتضمنه كتاب ، ولا أقصر على فكرة معينة يجتهد بعض العلماء فى إثباتها ، بما أوتى من قوة الحججة وساطع البرهان .

وجعلت أتناول بالقراءة والدرس جميع الكتب الدينية والكونية والاجتماعية ، وسائر ما يتعلق فيها بعلم النفس . وأكبت على ذلك عدة سنين ، فاكسبت علماً غزيراً ، واتسع أمامى نطاق الحياة ، وجال نظرى فى الكائنات جولات أفادتني فيما أتناوله بالبحث والدرس حتى صرت لا أقنع بفكرة دون أن أعنى بدرسها وتمحيصها ، معتهداً فى ذلك على تجاربي الذهنية التى مرت بى .

وقد أفادتني هذا الشك استقلالاً فى الفكر ، واعتماداً على النفس ورغبة فى استيعاب ما يقع بيدي من الكتب ، على اختلاف أنواعها بصبر وجلد ، كما أفادتني فى البحث ، حتى أزال الشك عني ، وارتاحت نفسى إلى عقيدة ثابتة (١) .

فهذه صورة من حياة محمد فريد وجدى فى هذه المرحلة من حياته فى دمياط .

صورة شاب فى مقتبل شبابه ، اقبل على هذه المدينة ، وهو فى سن التفتح العقلى والتوثب الذهنى ، وكان ما اتبع له فى القاهرة من قراءات حرة وتأملات طليقة قد رشحه لنوع من الاستقلال الفكرى ، ربما

(١) الإسلام دين الهداية والإصلاح، ص ٩ - ١٠ (سلسلة كتاب الهلال ، نوفمبر سنة ١٩٦٢) .

كان يشوبه شيء من الغرور ، وإذا هو فى مجلس حافل بالشيوخ من علماء هذه المدينة يتحدثون . وتعرض بعض مسائل الدين فيتناقشون فيها ويتناظرون ، وإذا هو يسمع أشياء لا يسيخها ، وإذا بأسلوب فى التفكير والتقرير ينكره عقله . ويأباه العلم الذى تمثل له فيما قرأ من دراسات فى « الكون والخلق » انطبع بها تفكيره ، وإذا هو يرى نفسه مدفوعاً إلى مناقشتهم والإدلاء برأيه فى هذه المسائل التى تتعلق بالكون والخلق ، ولكنه لا يكاد يهتم بالمناقشة حتى يحس أبوه بالخرج فيصرفه عنها . ويأمره ألا يخوض فى المسائل الدينية التى لا شأن له بها ، ولا قدرة له عليها .

ويكبر هذا الموقف من الأب فى نفس الفتى المعزز برأيه وتفكيره ويرى فيه « حجراً على العقل بلا مسوغ » . وتمثل أمامه أقوال هؤلاء الشيوخ وآراؤهم فى الدين فإذا هو يردد بينه وبين نفسه : إذا كان الدين هو ما تعرضه أقوالهم فهو باطل . وإذا لم يكن ذلك هو الدين ، فما هو إذن ؟ . وبذلك يرى الشاب نفسه مدفوعاً إلى التماس الدين فى كتبه ومصادره ، وقد تبين له عقم الكتب التى صدر عنها هؤلاء الشيوخ فى تمثيلهم للدين ، وفى تفكيرهم الدينى . ويدفعه ذلك إلى عدم الوقوف عندها والاكتفاء بها ، وإنما يتجاوزها إلى غيرها . فيمضى بقراءاته الدينية فى كل مجال ، ويلتمس الحقيقة الدينية فى كل سبيل ، مستطرداً إلى قراءة كل ما هو بسبيل من الدرس الدينى ، من « الكتب الكونية والاجتماعية وسائر ما يتعلق بعلم النفس » .

ذلك هو فتانا أول مقدمه دمياط ، وتلك هى بداية السبيل التى سلكها ، والأصل فى الوجهة التى اتجه فى حياته إليها ، وهى الوجهة التى لم تسكد تتضح له حتى رآها غايته الأولى . واعتبرها نصيبه المفروض من « خدمة الوطن » .

وقد كانت حساسية الشباب نحو العمل للوطن، في هذه الفترة من الحياة المصرية، حساسية شديدة مبكرة، لا يكاد الشاب يحس برجولته حتى تتجه مشاعره نحو وطنه وواجبه لإزائه، وكذلك لم يكد محمد فريد وجدى يبلغ السادسة عشرة حتى اعتبر أن هذه السن هي « سن البدء في العمل للوطن »، كما هو نص عبارته . أليست هي السن التي بدا فيها مصطفى كامل الشعور بواجبه نحو وطنه والعمل له . فكان من ذلك اتجاهه إلى تأليف جمعية أدبية، وهو ما زال تلميذاً في المدرسة الخديوية؟^(١) .

أما كيف كان تفكيره في هذه المسألة، وكيف كان يتمثلها، وكيف كانت خطته التي ارتسمها لها، فلعلنا نستطيع أن نرى صورة من ذلك في المقدمة التي كتبها لكتابه « تطبيق الديانة الإسلامية على نوااميس المدنية » .

لقد كان أول ماصدمه في ذلك المجلس الذي كان ينعقد في دار أبيه في دمياط هو ذلك التعارض بين الإسلام، كما يتمثله أولئك الشيوخ، وبين المنهج العلمي كما يراه، فلما جعل يلتبس حقيقة الإسلام لم يكن التعارض إلا بين الإسلام، كما هو في حقيقته الصافية، والإسلام في تلك الصورة التي غلبت عليها البدع المنكرة، ونكرتها الخرافات المستهجنة، والتي عرضته لقلالات السوء من الأوروبيين الذين لا يرونه إلا بمجموعة من « البدع التي اخترعها صغار العقول، وقبلها منهم العامة، وزادوا عليها أشكالا من الأوهام والأضاليل، تنفر منها الطبائع البشرية، وتنافي أصول المدنية » .

(١) يقول عبدالرحمن الرافعي في كتابه عن مصطفى كامل : بدأ يشعر وهو في السادسة عشرة من عمره أن عليه واجبات نحو وطنه يجب أن يؤديه . ظهر هذا الشعور — أول ما بدا — وهو في الخديوية، إذ أسس جمعية وطنية أسماها : جمعية الصليبية الأدبية، واختار لها أعضاء من بين أصدقائه في التلمذة، ممن توسم فيهم العقل والذكاء والكفاية .

ولاذن فإن أول واجب عليه إزاء ذلك - كما يجب على كل شرقي متنور - هو أن يصحح هذه الصورة ، ويحلوها مبرأة مما لحق بها ؛ فيبين الإسلام على حقيقته أمام الأوربيين ، إلى جانب السعى في محو البدع التي غص بها العالم الإسلامي .

ثم يقول في هذه المقدمة : « هذه الأفكار كانت تجيش في صدري من منذ أربع سنوات ؛ وأنا إذ ذاك في سن البدء في العمل للوطن ؛ فلم أر أفضل لخدمته من هذه الوجهة ؛ فتأبرت من حينها ، بهمة لا تعرف الملل ، على درس ما يؤهلني إلى فهم حقيقة الإسلام ، حتى آنست من نفس القوة على القيام ببعض هذا الواجب الأقدس ، فابتدأت أعمالى بتأليف كتاب باللغة الفرنسية ، نقيت فيه عن الإسلام كل تهمة ألحقها به المفترون ؛ وأثبت بالأدلة الحسبة ، وبالأستناد على البدائه العلمية ، أنه روح المدنية الحقيقية ، وعين أمنية النفس البشرية ، ونهاية ماترمى إليه القوة العقلية » .

وهذا الكتاب الذى ذكر أنه ألفه بالفرنسية ، تحقيقا للغرض الذى كان ما يزال ماثلا أمامه ، وهو تعريف الغربيين بالدين الإسلامى على حقيقته ، هو الكتاب الذى أشار إليه السيد محمد رشيد رضا فى أولى رسائله التى كان يبعث بها إلى صديقه فى الشام ، الشيخ عبد القادر المغربى منذ وصوله إلى مصر (فى الثالث من شهر يناير سنة ١٨٩٨) . وفى هذه الرسالة يتحدث عن بعض جولاته السريعة التى كان يلم فيها ببعض مدن الوجه البحرى ، عقب وصوله ، وهو فى طريقه من الإسكندرية إلى القاهرة واللقاءات التى أتاحت له فيها ؛ والصلوات التى أخذ يعقدها . وكان من ذلك أن عرج على مدينة دمياط واجتمع بعلمائها . وكان ممن لقيهم فيها محمد فريد وجدى ؛ وقد تحدث عنه فى هذه الرسالة قائلا :

« فريد بك ؛ ابن وكيل محافظة دمياط . شاب ذكى نبيه ؛ أبصر أهل

دمياط بحالة الإسلام والوقت . وجهته مثلنا دينية . يطالع الإحياء ؛ وله اعتناء بالفلسفة . ألف كتاباً صغيراً سماه « الفلسفة الحقّة » اهداني نسخة منه ؛ وهو الآن يستعد لتأليف كتاب بالفرنسية في الديانة الإسلامية ويعرضه في معرض باريز الآتى . وهو منفرد بهذه الأفكار في دمياط لأن دمياط بلدة إسلامية لا مداخل للنصارى والإفرنج فيها ، ومن ثم هي ضعيفة في العمران ، قوية في التسك بالدين ، لا نظير لها في مدن مصر . زرت فريد بك وزارنى ، وقد أعجب بى كل الإعجاب ، وتمنى أن أكون معه دائماً ، ونشط همتى على إنشاء الجريدة ، وسيكتب فيها « (١) » .

فقد كان فريد وجدى يتهيأ ، إذن ، فى الأيام الأولى من سنة ١٨٩٨ لتأليف ذلك الكتاب الذى يذكره فى مقدمة كتاب « تطبيق الديانة الإسلامية على نواميس المدنية » على أنه أصله ومبدؤه كما يذكره مرة أخرى فى رسالة إلى السيد محمد رشيد رضا ، عند شروعه فى طبع هذا الكتاب يقول فيها : « وبعد ، فإننى أرى من الواجب على إحاطتكم علماً بما عزمت عليه مما يعضد مشروعاتكم ويقوى صوتكم . وهو أنى ألفت قبل بضعة أشهر كتاباً باللغة الفرنسية ، أثبت فيه بالبراهين العصرية ، وبالأستناد إلى أقاويل أساطين فلسفة زماننا الحاضر أن المدنية الحقّة والإسلام هما أخوان توأمان لا يفرقان ، وبعثت بالكتاب ليطلع فى باريس » (٢) .

لقد كانت فكرة الاتجاه إلى الأوربيين بالكتابة عن الإسلام لا تزال مسيطرة عليه ، وذلك لتصحيح صورته فى أعينهم ، إذ كان يأنف — فيما يبدو — من أن يكونوا لا يعرفون عن دين الإسلام إلا ما يرونه أمام

(١) مجلة الرسالة ، السنة الثالثة ، العدد ١٤٤ (٩ سبتمبر سنة ١٩٣٥)

(٢) المنار ، السنة الأولى ، ص ٢٦٢ (٢٥ أكتوبر سنة ١٨٩٨)

أعينهم كل يوم ، مثل الصباح في الطرقات خلف الطبول وتحت الرايات ومثل اقتراف أشد المنكرات المنافية للادب والعقل ، في الموالد التي تقام في كثير من فقط القطر المصرى ، ومثل الاجتماع في حلقات كبيرة ، على مرأى ومسمع من ألوف المتفرجين ، والصباح الشديد بالذكر ، مع التمايل يمينا ويساراً ، إلى غير ذلك كما هو نص عبارته .

وفكرة الاتجاه إلى الأوربيين بالكتابة لتبصيرهم بحقائقنا ، واستخدام لغتهم في ذلك ، ينبغى أن نفهمها في ضوء الروح السائدة في ذلك الوقت ، والتي كان من مظاهرها — مثلاً — اتجاه مصطفى كامل إليهم بزياراته واتصالاته وخطبه ورسائله ، ثم إصداره جريدة اللواء بالفرنسية والإنجليزية . صحيح أن ذلك كان نوعاً من الدعاية السياسية ، أو ما يسمى بالإعلام في هذه الأيام . ولكنى أحسب أن محمد فريد وجدى كان يرى أن جهاده في سبيل الدين هو في حقيقته وجه من وجوه الجهاد في سبيل الوطن ، وأن عمله في هذا الميدان لا يقل خطراً ولا يختلف كثيراً عن عمل رجل مثل مصطفى كامل في ميدان السياسة .

وإذا كان هذا الميدان يقتضى أصحابه الاتجاه إلى الأوربيين لتصحيح وضع مصر السياسى عندهم ، فالأمر كذلك بالقياس إلى أصحاب الميدان الدينى . فلا بد من الاتجاه إلى الأوربيين الذين يسيئون فهم الصورة الدينية في مصر والعالم الإسلامى ، لتصحيحها ، حتى يمكن « أن يتعارف الفريقان تعارفاً يمحو ما سبق من التناكر الذى كانت نتائجه دائماً اضطراب نيران الشقاق بينهما » ، كما يقول في مقدمة كتابه ذلك « تطبيق الديانة الإسلامية على نوااميس المدنية » .

فأكبر الظن أن محمد فريد وجدى كان متأثراً بهذه الروح ، ومن ذلك (٣ م — محمد فريد)

كان تفكيره في أن يكتب عن الإسلام بالفرنسية^(١) . وإذا كان يقدر مبلغ العقبات التي تعترض نشر كتابه ذلك بهذه اللغة ، فقد خطر له ذلك الخطر الذي يمكن أن يوصف بأنه ساذج ، وهو أن يعرضه في معرض باريز ، إن صح ما يحكيه السيد محمد رشيد رضا في رسالته . ثم تبينت له بعد ذلك سذاجته فحاول أن يطبعه في باريس ، وإن لم تتم هذه المحاولة . وهذا جملة ما نعرفه عن هذا الكتاب^(٢) .

(١) وقد ظلت هذه الفكرة تراوده بعد إصداره مجلة الحياة ، فقال في العدد الثاني الصادر في ٩ يولية سنة ١٨٩٩ : « ولعزمنا بعد أن تتولد دعائم هذه الجريدة ، أن نصدر جريدتين أخريين : إحداهما فرنسوية المباركة ، تحررها بقلنا ، والأخرى انجليزية ، ننقحها لمن أبناء البلاد مترجما . وستبحث كلتا هاتين الجريدتين في الإسلام لتؤدي لشق عظيم من النوع الإنساني خدمة كبرى ، ولتدحض ترهات المذاعين عن هذا الدين القويم . والله المعين » .

(٢) يقول محمد يوسف خليفة في مقاله الذي أشرنا إليه : « وفي عام ١٨٩٨ وضع بالفرنسية كتابا عن الإسلام والمدنية . وقد كان — وما زال — ذلك الكتاب فريدا في نوعه ، في تقديم روح الإسلام وفلسفته بطريقة عصرية ، مما حمل الهيئات الإسلامية وقتئذ لرغبة لمؤتمر الأديان المنعقد باليابان » . وفي هذا الكلام خلط بين كتابه هذا الذي وضعه بالفرنسية ، والكتاب الذي ظهر بالعربية يحمل فيما بعد هذا الاسم ، والذي ستحدث عنه بعد ، وبينه وبين الرسالة التي وضعها بالفرنسية بعد هذا بنحو سبع سنين ، باقتراح الزعيم مصطفى كامل ، لتقديمه إلى مؤتمر أشاعت الصحف أنه سيعقد باليابان ، للبحث في الأديان ، كما ستعرض لذلك في موضعه ، إن شاء الله .

- ٣ -

أما الكتاب الآخر الذى أشار إليه السيد محمد رشيد رضا ، فى تلك الفقرة التى أوردناها من رسالته إلى الشيخ عبد القادر المغربى ، وقال أن « فريد بك » أهده نسخة منه . فتمام اسمه « الفلسفة الحققة فى بدائع الأكوان » . وهو كتاب صغير يقع فى أربع وثمانين صفحة ، ظهر قبل أن يلتقى الرجلان فى دمياط بأكثر من عامين ، وكان محمد فريد وجدى لاذ ذاك فى السابعة عشرة من عمره .

وموضوعه بيان أسرار الوجود ، والحكمة الكامنة فى كل وجه من وجوهه ، وفى كل صورة من صوره . وقد صنفه على عوالم الكون الأربعة : الإنسان والحيوان والنبات والجماد . أو هذا مارسمه أولاً ، ثم استغنى عن أن يعقد لعالم الجماد فصلاً ، وقال فى تبرير ذلك فى آخر فصل النباتات : « وحيث إننا أتممنا الكلام عن النباتات كان من الواجب علينا أن نتكلم عن الجمادات ، جرياً على السمت الذى رسمناه لأنفسنا ، فى مقدمتنا . ولكننا رأينا أن أكثر أجزاء هذه المملكة جاء منشأ فى أثناء الكلام على غيرها . فوجب علينا حرصاً على قاعدة عدم العود إلى موضوع سبق القول فيه ، أن نلوى عنه كشحاً . ونضرب عنه صفحاً . وخير كاتب من لم يستطرد قلبه إلى التطويل الممل ، ولم يستنزله إلى مهواة الإيجاز المخل ، بل من يتخذ بين ذلك سبيلاً »^(١) .

فهذه فصول ثلاثة هى : الفصل الثانى والثالث والرابع ، لكل ملكة

(١) الفلسفة الحققة ، ص ٧٠ .

فصل: الإنسان والحيوان والنبات . أما الفصل الأول فجعله عن الكون الذى تقوم به هذه الممالك ، ويعنى به الكرة الأرضية التى تقوم عليها هذه العوالم والكواكب السماوية الأخرى التى « لو قسنا حجم أرضنا نجده لا يذكر بجانب أحجامها » كما يقول . وخص كوكب المريخ « وهو - كما يقول - الكوكب الذى كثر الكلام عليه فى هذه الأيام » بفضل عناية . وقدم لهذه الفصول الأربعة بمقدمة جعلها كلاماً عن الإنسان وأحواله ، وختمها بخاتمة جعلها كذلك كلاماً عاماً عما عرض له فى الفصول السابقة من الكلام عن « الأكوان والإنسان والحيوان والنبات »

هذه هى الرسالة التى تمثل الإنتاج الفكرى الأول لمحمد فريد وجدى كما نستطيع أن نمثل فيها اتجاهه الأول إلى درس الكون والنظر فى الكائنات ، وهو الأمر الذى كان مثار الخلاف بينه وبين شيوخ دمياط ، كما رأينا فيما أوردنا من حديثه مع طاهر الطناحى .

وإذا كانت هذه الرسالة تؤدى إلينا صورة من القراءات التى كانت تستهويه وتستبد به فى مستقبل شبابه وأواخر صباه ، والتى كان يلتمسها فى الكتب والصحف والمجلات ، ويتابعها فى كل ما يرد إلى مصر من ذلك مما يقع فى يده . ويدخل فى قدرة عقله ، كما تبين لنا نوع التأملات التى كانت تستغرقه وتسيطر عليه وتكاد تصرفه عن كل شىء عداها ، فإننا نستطيع أن نتعرف فيها - فى الوقت نفسه - إلى غير قليل من أصول المبادئ التى غلبت عليه فى حياته العلمية .

فترى فيها مثلاً صورة المثل الأعلى التى جعلت تستهويه ، وما زالت تتخايل له حتى صرفته إليها ، وزهدته فى كل ما عداها بما يستهوى الشباب ، حتى واجباته المدرسية التى كان عليه أن يخصصها بقدر غير

قليل من عنايته أخذت تتضاءل في عينه ، وتتضاءل معها كل النتائج التي قد يظفر بها من أدائه لها ونجاحه فيها . إن الصورة التي برزت له من خلال قراءاته وتأملاته ، وهى صورة الرجل العالم الباحث عن الحقيقة ، لا يفتأ ينقب عنها ويجرى وراءها ، فإذا هى كل همه ، تجمعت فى محبته عنها كل لذائذ حياته ومتع وجدانه ، هذه الصورة قد أصبحت نصب عينه وملء خواطره . وقد بالغت فى تزيينها وتلوينها وتوشيتها سنة الغضة وشبابه المتوقد . فهو لا يفتأ يحاول أن يصوغ نفسه على غرارها ، ويدفع نفسه فى تيارها . يحفره طموح قوى وخيال متوثب .

وقد عرض لهذه الصورة ورسم بعض خطوطها فى غير موضع من كتبه هذا . من ذلك قوله فى مقدمته ، بعد أن تحدث عن الإبداع الكونى ، وعجز العلماء عن وصفه ، وقصورهم عن إدراك كنهه ، كما يشهدون بذلك على أنفسهم فى كتبهم ورسائلهم :

«... فهو لاء العلماء هم أكثر الناس لذة ، وأوفرهم حظاً ، وأغزرهم عقلاً ، وأفضلهم نبلاً . يرى الواحد منهم النملة سائرة على أديم الأرض ، فيكون نظره إليها ، وهى دائمة لتصل إلى وكرها ، حاملة لغنيمتها ، ألد له من اجتلاء خطرات الغادات فى الخنازل النضرات ، وإن سمع زمجرة الرعد وقواصف الرياح يهتز لحسكمتها طرباً ، ولا طربه من سماع رنات العيدان ، بين الكاسات والندمان . فإن خيرت أحدهم بين نواله ملء الأرض ذهباً مع صيرورته من ذوى العقول الساذجة ، وبين بقائه على حالته مع الفقر المدقع ، لرضى بالثانى رضى لا يشوبه ندم ولا يصحبه سدم مع هربه من الأول ولا هربه من المصاب بالتيفوس . فهو فى حالة لا يعلم قدرها إلا هو ومن على شكله وشاكلته » يؤنى الحكمة من يشاء ،

ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ، وما يذكر إلا أولوا
الآلئاب .

وأما من قضى عليهم بأن يعيشوا منصرفين عن التدبر في عجائب
كونهم : مقتنعين برغيف وجرعة ماء وكسوة تقيهم الحر والقر ، فهم
لعمر كيرثي لهم ويكي عليهم ويندب حظهم ، لاسرور عندهم ، ولا بشر
يخملج في أفئدتهم ، فما لهم حظ في هذه الحياة الدنيا إلا المأكـل والمشرب
وحسو الكاس ، ومعاناة الشهوات ، ومناغة الموبقات .

ومهما يكن في هذه العبارات من فجاجة وقصور ، ومن تكلف
في التعبير ، أو ما إلى ذلك مما هو أمر طبيعي بالقياس إلى شاب ناشئ
في السابعة عشرة ، لم يتمرس بالكتابة ، وقد أخذ نفسه بمعاناة التأليف
لأول مرة ، دون أن يستكمل أداته — وقد يكون إيرادنا لهذه الفقرة
من كلامه لتكون إلى جانب ما أردنا الاستشهاد له ، نموذجاً من كتابته
وهو يخطو فيها خطاه الأولى — مهما يكن من ذلك فإننا نستشف وراء
هذه العبارات صورة المثل الأعلى للعالم الذي أصبح العلم عنده نوعاً من
التصوف ، والذي فتنته الطبيعة ، موضوع درسه ، فصرفته إليها عن كل
متاع مادي ، فهو يؤثر اللذة العقلية والمتعة الروحية على كل شيء ، وهو
المثل الذي استطاع أن يستهويه وهو في هذه السن . وقد ظل ماثلاً
أمامه ، غالباً عليه طيلة حياته .

وفي هذا الكتيب نرى الصورة الأولى للروح العلمية التي ظلت مسيطرة
عليه في جميع الميادين التي كان يخوضها ، والقضايا التي كان
يعالجها .

وتستطيع أن نرجع بهذه الروح العلمية إلى «حادث الشك في العقيدة»

الذى حدث به عن نفسه، وحكاه عنه الأستاذ طاهر الطناحى فيما أوردناه آنفاً ، وهو الشك الذى دفعه إلى قراءة كتب الدين فى جميع اتجاهاتها ، وقراءة كل ما يتصل بها ، وبحث المسائل الدينية من جميع جوانبها ، لا يقنع برأى ولا يقتصر على قول ولا يكتفى بما يعرض له . وفى هذا الكتيب جعلت هذه الروح العلمية تعلن عن نفسها بالدعوة إلى التوقف والحذر ، وترك البت والجزم فى مسائل العلم ، أو الوقوف عند المقررات ، كأن العلم قد قال كلمته الأخيرة فيها ، وليس له أن يفعل ، والتنديد بالذين يقفون عند الظواهر ويقنعون بالقشور ، فيصدرون أحكامهم العلمية فى صورة قاطعة جازمة ، وذلك إذ يقول :

«قد جرى كل علماء الدنيا على عدم الاغترار بالقشر عن اللباب ، وصاروا ينظرون للشيء مريدین معرفة كنهه لا حقيقته فقط . أما اللذين قرأوا كتاباً أو كتابين ، وتعلموا بعض الاصطلاحات الفنية ، وطمس على بصيرتهم ، فإنهم ينظرون للطبيعة نظر العميان . فلا يرون فيها شيئاً من الأشياء إلا وجدوا له فى مخيلتهم كلاماً محفوظاً قرأوه فى كتبهم . فلما تحصل لهم ذلك إذا هم يغترون بأنفسهم ، ويزعمون أنهم أساطين الطبيعة وعمادها ، فترهبهم فكرتهم الجامدة أن الطبيعة ليست بغريبة التركيب ، (لا لأنهم عرفوا كل شيء فيها) . فمثل هؤلاء كمثل المغترين بالسراب الكاذب الذى لا يغنى عن الماء فتيلاً . لو سألت أحدهم ما الماء ؟ لقال بملء فيه : أوكسجين وأيدروجين فقط ، كأنه ينص على أن هذين الجسمين فقط هما عنصرا الماء ، ومع أن حضرته لا يدري أنه ربما وقع فيما كان واقعاً فيه أسلافنا من اعتبارهم الماء عنصراً واحداً . هل قام لديه دليل على أن الأوكسيجين جسم بسيط ؟ وما المانع من أن

يكون مركباً من جملة عناصر أخرى ، تظهرها الآلات المستقبلية في
الأيام المقبلة^(١) ،

إلى غير ذلك مما نجده في غير موضع من هذا الكتاب .

وبعد ، فإن هذا الكتاب — بالرغم من كل ما فيه من مظاهر القصور
والفجاجة أحياناً — يمثل كثيراً من العناصر الأولى لشخصية محمد فريد
وجدى في أوليتها. ولا ريب عندنا في أن الإمعان في درسه وتحليله جدير
أن يؤدي إلينا صورة من هذه الشخصية في هذه المرحلة الأولى من
مراحلها ، كما يبرز لنا كثيراً من عوامل نشوئها ، ويعين لنا المصادر الأولى
التي كانت تصدر عنها ، وتكونت — أول ما تكونت — بها ، بما نرجو أن نعرض
له حين نأخذ ، إن شاء الله تعالى ، في درس جوانب هذه الشخصية .

وأكبر الظن أن هذا الكتيب الذى خرج إلى الناس يحمل اسم
« محمد فريد نجل مصطفى بك وجدى » قد أثار في بيئة دمياط وفي الأوساط
المتصلة بهذه الأسرة غير قليل من الإعجاب ، وخاصة لصدوره عن شاب
ناشئ مثله ، لا يزال في مرحلة الدراسة الثانوية . ولكننا نحسب — مع
ذلك — أن أصداءه لم تكد تتجاوز ذلك النطاق . ولعل الصمت الذى
أحاط به بعد ذلك كان — إلى جانب حساسية ذلك الشاب المفرطة —
من أسباب ما كان يسيطر عليه أحياناً من تشاؤم ، نلمحه في مثل هذه
العبارات التى وردت في رسالته التى كتب بها إلى صديقه — إذ ذاك —
محمد رشيد رضا ، والتى نقلنا عنها ما تحدث به عن كتابه الذى كتبه
بالفرنسية ، فقد قال في عقب ذلك : « وكنت موطناً نفسى على عدم

(١) الفلسفة الحقة ، ص ٤٢ .

كتابة نتيجة أبحاث الإسلاميه باللغة العربية ، لاضنا على قومي بمعلوماتي ،
ولكن لعلبي أن حظ المؤلفين بالعربية مبخوس ، وطالهم في أسفل
درجات النحوس . وأن القوم قد أعرضوا عن المطالعة والاطلاع إعرضا
يثبط العزائم ، ويحل عصم النوايا ، فلا يجنى المؤلف من تعب غير خسارة
ومذلة تكرهان إليه الأقلام ، وتحرمان عليه استئناف الإقدام .

ولكن التشاؤم المشوب بالغرور الساذج لم يكن بحيث يدفعه عن
العمل ، ويصرفه عن المشاركة في الحياة المصرية .

- ٤ -

وبعد صدور هذا الكتاب بثلاث سنوات ، أى فى سنة ١٨٩٨ ، صدر كتابه الثانى ، وهو الكتاب الذى استهل به نشاطه فى سبيل الغاية التى اتجه إليها ، منذ شهوده مجالس الشيوخ فى بيت أبيه ، على النحو الذى رأينا . وقد أقبل بذلك على الدرس الدائب لكتب الدين وما يتصل به عنده من علوم الفلسفة والاجتماع وعلم النفس ، مستهدفاً بذلك فهم الدين على حقيقته ، وتمثل صورته الصحيحة ، مبرأه مما لحق بها فى عصور الجود والتراجع والتخلف من بدع وخرافات وأضاليل شوهتها ونكرت بحياها ، حتى يستطيع أن يحلوها على العالم أجمع ، فى إطار علمي .

وهذا الكتاب هو كتاب « تطبيق الديانة الإسلامية على نوااميس المدنية » .

وقد أشرنا من قبل إلى شىء من قصة تأليف هذا الكتاب ، فى سياق حديثنا عن حياته منذ جاء دمياط مع أسرته سنة ١٨٩٤ ، واتجاهه إلى الدراسات الدينية ، وما جعل يبذله من جهد دائب فى القراءة والتأمل والمراجعة واستخراج النتائج ، حتى آنس من نفسه القوة على أن يكتب عن الإسلام كتاباً ، رأى أن يضعه باللغة الفرنسية ، ثم بدا له بعد أن فرغ منه أن ينقله إلى العربية ، فكان هذا الكتاب الذى استهل به جهاده الدينى ، والذى يحدد غرضه منه بقوله فى مقدمته :

« على أنى كلفت نفسى تجشم المصاعب فى هذا العمل لا بقصد اتخاذ اشتغالاتى فيه تسلياً لى على ما أضعت من وظيفة وشهرة . كلا بل غرضى الوحيد من هذا العمل هو إقامة الحجج العلمية على أن دين الإسلام ليس الدين الذى يتناساه ذووه ، أو يلوى الكشع عنه متبعوه ، وأنه ليس

بالدين الذى تعارضه العلوم العصرية والحقائق الفلسفية ، بل هى مما تزيده تثبيتاً وتمكيناً ، وتزيد متبعية إيماننا و يقينا ، وأنه كان يجب أن يجد من طلاب العلوم الجديدة انصاراً اولى قوة ومكانة ، لأن يرى منهم إعراساً وابتعاداً يدلان الرأى على ما الإسلام يرى منه ، وبعيد بعد السماء عنه^(١)

فالوجهة التى اتجه إليها فى هذا الكتاب هى جلاء الإسلام فى الصورة التى لا ياباها العلم الحديث ، ولا ينكرها العلماء المحدثون ، ولا يجد طلاب العلوم الحديثة معها غضاضة فى متابعتة والمناداة بمبادئه .

وقد كان يكتفى فى تحقيق هذا الغرض أن يرد الإسلام إلى أصوله الأولى ، وأن يجرده مما لحق به وتراكم عاياه فى العصور الأخيرة ، بل — فوق هذا — مما اندس إليه من مواريث الأمم التى دخلته ودانت له ، مما هو بعيد عن مبادئه أو مناقض لها ، وما اقتجمه بعد من أساليب الفلاسفة والمتفلسفة ، وما أدى إليه ذلك من مشاغبات ومباحكات ضاعت فى غبارها حقائقه وخفيت معالمه . وقد كان ذلك هو المنهج الذى انتهجه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، واستطاع ، بسعة علمه وصفاء بصيرته وقوه حجته وبلاغة عبارته ، أن يباغ به فى جلاء صفحة الإسلام ، واضحة نقيه ، مبلغا رائعا فريدا .

ولكن محمد فريد وجدى لم يكتف بذلك . وإنما أراد أن يضع المبادئ التى قام الإسلام عليها ، والتعاليم التى جاء بها ، كما تادت إليه أثناء دراساته الدينية ، بإزاء النواميس الكونية ، والمقررات التى تقررها

(١) الإسلام والمدنية ، ص ٥ ، الطبعة الثالثة . (وقد رأى أن يستبدل بالاسم الأول هذا الاسم لاختصاره) .

وانظر إلى أى شىء يشير قوله : « ... على ما أضمت من وظيفة وشهرة » . ربما كان معنى انصرافه عن الدراسة المدرسية المؤدية إلى الوظائف وما تتيحه من منزلة فى المجتمع رفيعة .

العلوم العصرية ، كما جاءت في كتب العلماء الأوروبيين التي أتيحت له ، ليكون ذلك أقوى في الإقناع : إقناع الأوروبيين ، وإقناع المختارين من المسلمين بأقوال الأوروبيين .

وكأنما أحس بما قد يلقاه صنيعة هذا من إنكار بعض القراء الذين يربأون بالإسلام أن يقرن إلى غيره ، أو يحتاج إلى كلام الأوروبيين للاحتجاج له ، فقال ، معذراً إلى هؤلاء :

« هذا وليغفر لي القراء الكرام كثرة استشهادي بأقوال علماء أوروبا ، فإنني لم أقصد بذلك أن أستدل بكلامهم على صدق الدين . كلا ! فإن الإسلام أجل من ذلك واعلا . بل قصدى أن أبرهن على أن كل نواميس المدنية التي سادت أوروبا في القرون الأخيرة ليست بالنسبة لنواميس الإسلام إلا كشعاع من شمس أو قطرة من بحر ،^(١) .

ومن هذه الوجهة التي اتجه إليها في كتابه ، والالتزام الذي التزمه ، كانت المصاعب التي يقول إنه تعجسها في وضعه ، فقد كان عليه أن يستخلص مبادئ الإسلام وتعاليمه ويحيط بها إحاطة تامة ، وأن يتمثلها تمثلاً واضحاً ، كما جاءت في المصادر الإسلامية الأولى ، وأن يحيط مع ذلك علماً بنواميس الكون ، والقضايا العلمية الكبرى ، كما يقررها علماء الاجتماع وعلماء النفس ورجال الفلسفة ، ويتعرف إلى مواطن التقابل والتطابق ، وهو — مع هذا كله — في مستهل حياته العلمية .

والحق أن الكتاب يمثل جهداً كبيراً واضحاً بذل فيه ، سواء في الناحية الإسلامية أم الناحية الأوروبية . فقد استطاع مؤلفه أن يتمثل الإسلام في روحه وقوانينه ، وفي كثير من جزئياته ، تمثلاً واضحاً ،

(١) الإسلام والمدنية ، ص ١١ ، الطبعة الثالثة .

واستطاع ان يستحضر الآيات القرآنية التى يستشهد بها ، مما يدل على أنه كان قد عكف على قراءة القرآن ودرسه وحفظ الكثير من آياته ، كما استطاع فى مواطن كثيرة ان يستشهد بحديث الرسول ، صلى الله عليه وسلم . وإن كان يخيل إلينا أنه لم يتح له أن يدرس علوم الحديث ومناهج روايته ، فى ذلك الوقت ، وأنه اكتفى منه بما اتيح له فى كتاب ككتاب إحياء علوم الدين للغزالي - وقد قال السيد محمد رشيد رضا إنه كان مما يقرأ - أو ما كان يقع فى يده من بعض كتب الحديث الجامعة المتأخرة التى كانت تلقى رواجاً فى بعض الأوساط الدينية ، فى ذلك الوقت ، ككتاب الجامع الصغير للسيوطى .

وأما الناحية الأوربية فما أكثر أسماء العلماء الأوربيين الذى يذكرهم ويستشهد فى مواضع مختلفة بهم ، فينقل آراءهم ويترجم أقوالهم ، كأوجست كونت ، وهگل ، وسبنسر ، وكانت ، ورينان ، وجول سيمون ، وكوندراسيه ، وبرتيلو . وما أكثر المصادر الأوربية التى يحيل إليها . ويترجم عنها ، كدائرة معارف لاروس ، وتاريخ الأديان لرينان ، والدين وينبوعه وأشكاله وترقيه لبنجامن كونستان ، والأبحاث الأخلاقية على الزمن الحاضر لكارو ، وحرية الاعتقاد لجول سيمون ، وقد احتفى بآرائه وآراء كاروفى للديانة الطبيعية احتفاءً ظاهراً ، منوهاً بها فى غير موضع ، كما علق عليها قائلاً : « لاشك أن كل من يمعن نظره فيمن قدمنا من نصوص الديانة الإسلامية ، وفى قواعد الديانة الطبيعية ، يرى بعينه أن الإسلام هو تلك الأمانة التى تحبسها الفلاسفة وتلمسوها فى سائر أبحاثهم العلمية ، من قديم الزمان إلى الآن » (١) .

(١) س ١٢٤ ، وانظر عن الديانة الطبيعية فى هذا الكتاب ، مثلاً من ٣٣ فى فصل :

« الدين والعلم » ، وض ٣٨ - ٤٠ فى فصل : « ماهو الدين » .

وقد تحدثنا حتى الآن عن ملاسات وضع هذا الكتاب ، والأهداف التي وضعها المؤلف نصب عينيه وهو يضعه . وتبيننا صورة من الجهد الذى بذل فيه والقراءات التى سبقته أو صحبته . أما منهجه فيه فقد بدأه « بمقدمات ضرورية تنشىء للمطالع فكرة عامة عن حالة الإنسان ، وتكاليف الحياة ، ونواميس الرقى والتأخر التى تتجاذبه ، وطبيعة النظمات التى تنازعت السلطة على الإنسان من قديم الزمان إلى الآن ، والخلاف الناشئ من زمان مديد بين العلم والدين » . كما تحدث فى هذه المقدمات عن الحريات الضرورية للإنسان ، وهى : حرية النفس ، وحرية العقل ، وحرية العلم ، وجهاد الإنسان لنيلها ، وهو فى ذلك لا يزال يعرض للإسلام وموقفه منها ، حتى خلاص له ، متحدثاً فى فصول عدة عن الواجبات الشخصية والعائلية والاجتماعية التى يفرضها ، ويأخذ المسلمين بها ، وعن واجبات المسلمين فيما بينهم ، مستطرداً فى أثناء ذلك إلى الكلام عن الرقى فى الإسلام . ثم عقد بعد ذلك فصولاً ثلاثة عن واجبات المسلمين بالنسبة للذميين : وواجباتهم بالنسبة للمعاهدين ، وواجباتهم بالنسبة لمحاربيهم . ثم ختم الكتاب بفصل عن الإسلام والمسلمين .

وقد وقع هذا الكتاب من البيئات العلمية الإسلامية موقعاً حسناً ، واستقبل فيها استقبالا كريماً . ومن ذلك تنويه مجلة المنار التى كان يصدرها السيد محمد رشيد رضا ، ويرعاها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وقد وصفت مؤلفه بأنه « الشاب الذى فاق الشيوخ أناة وكمالاً وعلماً بعمله » .

ثم كتبت عنه بعد ذلك فصلاً ضافياً تحدثت فيه عن مكانه بين المصنفات الإسلامية فى القرون الأخيرة . وهى المصنفات التى قالت عنها : « إن أكثرها أو كلها مأخوذة من كتب المتقدمين ، نسخاً يشبه

المسخ ، وأنه لم يكن يوجد عندنا كتاب فى الدين إذا عرض على متمدى هذا العصر يأخذ من قلوبهم مأخذاً يستلقتهم إلى النظر فى الدين بتمثيله سائقاً لهم إلى سعادة الروح والجسد ، على الوجه الذى يناسب زمنهم وعمرانهم ، حتى قام حكيم الإسلام فى هذا العصر ، العلامة الشيخ محمد عبده . فآلف رسالة التوحيد الشهيرة .

ثم انتقلت إلى الحديث عن هذا الكتاب فقالت : « وكفى هذا الكتاب شرفاً أننا جعلناه ثانياً لكتاب رسالة التوحيد التى لم يؤلف مثلها فى الإسلام قط . ولعمري إن مؤلفه الفاضل جرى على آثار الأستاذ الإمام فى الرسالة أسلوباً وبحناً ، ولا يعيبه أنه لم يبلغ شأوه بلاغة وتحقيقاً وتحريراً ، فالأستاذ حكيم الأمة فى هذا العصر ، وأبلغ كتاب العربية أجمعين . على أن فى الكتاب من الفوائد الكثيرة ما ليس فى الرسالة ، كما أن فيها ما ليس فيه ، فلا يستغنى بأحدهما عن الآخر » (١) .

ولعل من دلائل الحفاوة بهذا الكتاب والإقبال على قراءته أن أعيد طبعه سنة ١٩٠٤ ، أى بعد خمس سنوات . وقد جاء فى فاتحة هذه الطبعة :

« ... وإنا لنحمد الله على أن أولانا جزاء جهادنا فيه نفحة من مراحمه ، ظهرت آثارها فى قبول الأمة له بالحفاوة ، وتلقاها له بالتحبيذ والإطراء ، وقد تعدى الإعجاب به من العالم العربى إلى العالم التركى ، ثم إلى العالم الأوروبى ، فترجمه إلى اللغة التركية بعض رجال القضاء ... وقررت نظارة معارف الدولة العملية تدريسه فى المدرسة الإعدادية السككية ببيروت ... أما سريان هذا الأثر إلى العالم

(١) مجلة المنار ، الجزء السابع ، السنة الثانية (٢٩ إبريل سنة ١٨٩٩) .

الأوربي فقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة البوسنوية بواسطة أحد العلماء المدرسين في مدارسها . وتشره جريدة (بهار) بتلك اللغة تباعاً في أعدادها من هذه السنة .

ثم طبع للمرة الثالثة سنة ١٩١٢ ، وجاء في فاتحة هذه الطبعة :
« ليس لدينا ما نزيده على ما قدمناه في الطبعتين الأوليين إلا أن هذا الكتاب أعادت ترجمته إلى اللغة التركية مجلة (صراط مستقيم العثمانية) ، وترجم إلى اللغة الأوردية بالهند . ثم إلى اللغة الفارسية بفارس ، ثم إلى التارية بالقازان » .

وهكذا نرى أن هذا الكتاب لم يقف الترحيب به والإقبال عليه عند حدود البيئات الإسلامية المصرية ، أو الإسلامية العربية ، بل أخذ مكانه في البيئات الإسلامية غير العربية . وكان بذلك — فيما نحسب — الأصل في المنزلة الرفيعة والشهرة الدائمة التي ظفر بها محمد فريد وجدى في العالم الإسلامي .

- ٥ -

لم يطل مقام محمد فريد وجدى فى دمياط بعد صدور كتابه « تطبيق الديانة الإسلامية على نوااميس المدنية » ، إذ لم يلبث أن انتقل مع أسرته إلى مدينة السويس ، بعد أن صدر أمر وزارة الداخلية بنقل أبيه إليها ، فى مثل وظيفته بدمياط .

وما أحسب أنه كان لهذا الانتقال أثر فى حياته ، بمعنى أنه أضاف إليها عاملاً جديداً ، إلا أنه أتاح له تجربة جديدة محدودة ، بما عرض له من صور اجتماعية تختلف فى بعض تفاصيلها عن الصور التى أتاحت له فى الاسكندرية والقاهرة ودمياط (١) . وسواء كان فى دمياط أم فى السويس أم فى القاهرة ، فهو ماض فى الطريق الذى خط له ؛ مقبلاً عليه ، سعيداً به . وقد بدأ هذا الطريق ضيقاً متعراً بتأليف كتاب « الفلسفة الحقة » ، ولكنه ما لبث أن اتسع وتمهد بتأليف كتاب « تطبيق الديانة الإسلامية على نوااميس المدنية » ، وقد فتح له آفاقاً جديدة ممتدة ، كما جعل يزيد رحابة ، ويتشعب شعباً ، كلما امتد الزمن به ، وازدادت تجاربه .

والفترة التى امضاها فى السويس تبلغ نحواً من ست سنوات ، بدأت بانتقاله إليها فى أوائل سنة ١٨٩٩ ، فيما نقدر ، وانتهت بانتقاله منها واتخاذها القاهرة موطناً له فى شهر إبريل سنة ١٩٠٥ ؛ كما سنرى ذلك بعد . وإن كنا نحسب مع ذلك أن صلته بالقاهرة لم تنقطع مدة إقامته بالسويس

(١) من ذلك ما ذكره فى سياق الفصل الذى كتبه عن الزار فى دائرة معارف القرن العشرين

وأنه كان ما يزال يتردد عليها، من أجل كتبه ومجلة الحياة التي كان يطبعها في مطابعها .

ويبدو أن إصدار مجلة خاصة به كان أول شيء أزمعه بعد انتقاله إلى السويس . أما متى بدأ تفكيره فيها ؛ فلعل ذلك كان منذ أخذ السيد محمد رشيد رضا - في لقاءهما بدمياط - يحدثه عن مشروعه الذي جاء من الشام يحمله في رأسه لينفذه في مصر ، وهو إنشاء جريدة إسلامية ، وقد أعجب به ، ونشطه - كما يقول السيد رشيد - عليه ، ووعدته - تعبيراً عن إعجابه بهذا المشروع - أن يكتب في هذه الجريدة .

ولم يكن إصدار مجلة أمراً بالغ العسر شديد التعقيد، تتكاده الصعوبات وتستهلك التفكير فيه العقبات ، كما هو الأمر في هذه الأيام . فلم يكن على منشيء المجلة إلا أن يملك القدرة على الوفاء بمادتها الأدبية . أو يعرف الوسيلة إليها ، كما يملك - أو يستطيع أن يدبر - مورداً مالياً يؤدي ثمن الورق وأجر الطبع .

ولا نعلم أن ذلك الشاب الناشئ الذي كان يعيش مع أسرته كان له مورد مالي خاص به ، ولا نكاد نشك في أن أباه هو الذي انفق على إخراج كتابيه السابقين . وربما كان حسن استقبال القراء لهما ، أولئائيهما خاصة ، ومالقي من رواج في كثير من الأوساط ، مما يسر له أمر هذا المورد ، وهون له من أمر التكاليف المالية لمشروعه .

وأما المادة الأدبية فقد كانت هي حافزه الأول على التفكير في إصدار مجلة خاصة به . فالأفكار التي تستبد به ، والتأملات التي تملأ حياته ، والقراءات المختلفة التي تتجاوب بنفسه بأصدائها ، والاهداف التي مثلت أمامه واضحة ثابتة لا يكاد يرى شيئاً غيرها ، كل أولئك كان لابد له من متنفس يتنفس به ومن وسيلة يتحقق بها ، ولا شيء يكتفي في ذلك إلا أن تكون

له مجلته الخاصة، يودعها هذه الآراء، ويحملها هذه التأملات، وينقل فيها طرفاً من هذه القراءات، ويحملها رسوله إلى قرائه الذين انفتح سبيله إليهم بكتابته، ووسيلة لتحقيق أهدافه، كما يمكن بها لذلك المجد الأدبي الذي جعل يتخايل له ويتبرج .

وهكذا لم تكد الأسرة تستقر في مدينة السويس حتى اخذ في مواجهة ذلك المشروع، ووضع موضع التنفيذ، دون أن يثبط من عزيمته كونه بعيداً عن القاهرة، مركز النشاط الأدبي. فقد كان للأقاليم في ذلك الوقت مشاركتها الواضحة في إصدار المجلات الأدبية. وقد أعانته - ولا ريب - طموحه وحماسه وحيويته الجياشة على اجتياز العقبات التي تقدر أنها أثرت في وجهه، أو تجاهلها .

ولعله اتجه إلى الاستعانة بخبرة صديقه - إذ ذاك - السيد محمد رشيد رضا الذي كان قد أصدر في العام السابق جريدته المنار، أى في نفس العام الذي تحدث في أيامه الأولى معه عنها - وإن كنا نحسب أن رشيد رضا كان يكتم في نفسه ضيقه بأن يفرد صاحبه بإصدار مجله إسلامية خاصة تصرفه عن الكتابة في مجلته كما كان وعده من قبل - ومهما يكن من أمر فربما كان من مظاهر استعانت به أنه بدأ يطبع مجلة الحياة في مطبعة المنار .

وقد صدر العدد الأول من « الحياة » في « غرة صفر سنة ١٣١٧ - ٩ يونيه سنة ١٨٩٩ » وكتب في فاتحته هذه العبارات التي قد تحمل من الدلالة على ما كان يغلب عليه من بعض موضوعات القراءة والدرس التي تتردد اصداؤها في خلالها، ما يحملنا على إيرادها :

« الحمد لله على الإيمان والإسلام، والشكر له على ما حبانا من الإنعام، حمداً وشكراً يتلازمان على الدوام، ويتجددان بتجدد الأيام. وصل اللهم على من آتيت خزان الحكمة فافحم الحسما، وحبوته مفاتيح العلم

فأعجز العلماء ، قطب دائرة الكمال الأسنى ، والمظهر الأكمل لآسمائك
الحسنى ، سيد الوجود محمد عبدك ونبيك ورسولك ، وعلى آله وصحبه ،
ومتبعيه ، وسلم تسليماً كثيراً .

اللهم ان هذا موقف صعب قد وقفته على ضعف منى ، فقوى بقوتك ،
وامدنى بحولك ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بك ، اللهم ان هذا موضع قد
تزل فيها الأقدام وتضل فيه الأفهام ، فاجعل لى من واسع حكمتك نبراساً
استنير به منهاج الرشدفانهجها ، واستبين مخالغ الغى فاتنـكـبها . إنك سميع
الدعاء واسع العطاء ، آمين .

ثم كتب بعد هذه الفاتحة فصلاً طويلاً بعنوان « مقصد الحياة » ،
تحدث فيه عن بعض عوامل التطور الاجتماعى ومظاهره ، ليخلص
من ذلك إلى الحديث عن عامل الاتصال بين الشرق والغرب فى هذه
الفترة الأخيرة ، وما نشأ عن ذلك الاتصال بين مجتمعين : أحدهما فى
غاية بهائم ولائامه ، والآخر فى ظلام طال إطباقه عليه ، واستسلامه له ،
فهو فى عشوة مطلقة ، بسبب انبهاره بالمجتمع الأول . وإذ كان عاجزاً
بطبيعة الحال عن مجاراته ، فقد غلبت عليه روح التقليد ، فانساق لها ،
فجعل يقلده فى مظاهر سلوكه ، وفى صور أخلاقه وعوائده . ثم لم تلبث
هذه الروح أن تسلكت إلى العقائد ، فنشأت فى الشرق ناشئة تتظاهر
بالالحاد وتفاخر به ، باعتبار أن ذلك غاية التمدن الذى تحرص هذه
الناشئة على أن تعرف به ، وتوسم بسمته ، ثم خلص ، بعد ذلك ، إلى صميم
السلام فى مقصد « الحياة » . فقال :

« فمقصد (الحياة) - والحالة هذه - هو الخيلولة بين مكاريب
الالحاد وأذهان أبناء الشرق ، ولذلك فهى ستجعل مطمح نظرها
بجملـة نقط مهمة : أولها إقامة أقوى الأدلة العلمية على أن الديانة

الإسلامية هي روح العمران ، وقوام سعادة الإنسان ، بطرق لا تجعل للشكوك مجالاً في الأذهان . وستسلك لهذا الغرض المسالك العصرية ، وتأييد أقاويلها بالحجج الفلسفية الحسية . ثانياً: تثبيت الأحوال الدينية في العقول الطموحة، كاثبات وجود الله تعالى، والروح والآخرة، بالأدلة الدامغة . وسنعمد في ذلك على تحقیقات العلماء العصريين جرياً مع سنة الزمان، اعتقاداً منا بأن نشأتنا الحديثة أخرج إلى هذه الخدمة منها إلى سواها ، وإيقاناً من لدنا بأن نقش أصول العقائد في أذهانها بالطرق العصرية أنفع لها وللبلاذ من تعليمهم الطبيعة والكيمياء ،

فمجلة الحياة إذن - كما أرادها - مجلة خاصة بأدق معاني الخصوصية إذ تعالج موضوعاً خاصاً ، وتهدف إلى غرض معين ، هو مقاومة الالحاد؛ وتتخذ لذلك من الوسائل ما هو مطبوع بطابع خاص ، وهو ما يشتق كيانه من العلم العصري ومناهجه الحسية ، على النحو الذي ذكره هنا ، والذي كرره في مقدمة السنة الثانية إذ يقول :

« أما بعد ، فإننا أسسنا هذه المجلة في مثل هذا اليوم من السنة الماضية ومطمح نظراً غرضان مهمان ، وهما : تثبيت أصول الدين الإسلامي الخفيف في عقول أبنائه بفتائج العلم العصري ، وإقامة الأدلة العمرانية والفلسفية على أن هذا الدين الكريم هو منتهى ما يصل إليه الإنسان من حقيقة الدين ، وغاية ما تدفعه إليه استعداداته الفطرية المنزوية في طي مواهبه الطبيعية . »

وهي تختلف بهذا عن جمهرة المجلات التي كانت تصدر إذ ذاك، والتي كانت مجلات عامة، حتى مجلة المنار التي وصفت نفسها في صدرها بأنها جريدة علمية أدبية سياسية. بالرغم من صفة صاحبها الدينية، وحرصه على أن يوفر لجريدته الطابع الإسلامي .

وقد التزمت « الحياة » بهذا التخصص التزاماً دقيقاً لم تتجاوزه إلا في الفرط والندرة ، حتى لقد اقترح عليها أن تفتح باباً للإجابة على أسئلة القراء فاشترطت لذلك « ألا تتعدى الأسئلة حدود المسائل الفلسفية والأمور الإسلامية لأن موضوع المجلة لا يسمح بغير هذا » . وواضح أنها لا تقصد بالمسائل الفلسفية الفلسفة البحتة وإنما تقصد ما يتصل منها ببيان حقيقة الإسلام خاصة أو الدين عامة ، أو ما يستخدم منها في الاحتجاج لذلك .

وعن هذا التخصص كانت تصدر أبحاثها ودراساتها ، حتى الطرائف والشذرات التي كانت تذييل بها بعض أعدادها يلاحظ هذا الاتجاه فيها .

ويظهر أن محمد فريد وجدى ، محررها ، أراد منذ العدد الأول أن يكون بناؤها على أبواب ثابتة هي الأبواب التي يراها مؤدية إلى تحقيق أغراضها . وفي كل عدد من أعدادها يكتب فصلاً من كل باب ، بحيث تتكون من هذه الفصول الموزعة بين أعداد المجلة دراسات متكاملة وأن كان من هذه الأبواب التي فتحها مالم يتابعه .

فقد نشر في العدد الأول مقاله بعنوان : « تغذية الجنان ببدايع الألكوان » قال في مستهلها : « لم نربدا من فتح هذا الباب في الحياة ، لتلاشى الآواهام الفاسدة التي سادت على بعض العقول ، من أن علم الطبيعة يقوض أركان الإيمان ، وينسف بناء العقائد من الوجدان » ، ثم قال في ختامها : « نكتفى في هذا العدد بهذا القدر ، وأعدنا إن شاء الله بمتابعة الكلام في هذا الموضوع السامى ، وسرد بدائع صنع الله ، في قالب فلسفى ، تغذى به الأرواح ، وتهيم بلا أقداح » . ولعل ضيق نطاق المجلة ، واهتمامه بأبواب أخرى أمس بنايتها وأوثق صلة بصميم غرضها ، كان مما حال بينه وبين متابعة هذا الموضوع الذى تعود أصوله

إلى كتابه « الفلسفة الحقة » . وكذلك ختم المقالة التالية التي جعلها في إثبات وجود الله تعالى « بكلمة : « البقية تأتي » ، كما ختم مقالة « ما وراء المادة » بقوله : « تكتمني في هذا العدد بهذا القدر ، وأعدين ، إن شاء الله ، باستيفاء البحث في هذه المسألة وإيراد شهادات العلماء على صحتها ، مع سرد العجائب المدهشة التي فحصها العلماء بأنفسهم . . . » . وقد ظل باب ما وراء المادة مفتوحاً على مصراعيه .

وفي العدد الثاني استحدث باباً بعنوان : « معجزات الإسلام الخالدة » . وقد استمر هذا الباب مفتوحاً حتى العدد السادس . كما استحدث باباً جديداً لمقامات خيالية تتجه إلى تقرير المبادئ التي يؤمن بها ويدعو إليها ، وجعلها بعنوان . « وصف أخال بلسان الخيال » . وهو باب استمر طويلاً في الحياة ، متطوراً في أسلوبه وموضوعاته ، كما اتخذت هذه المقامات عناوين مختلفة ، فقد أصبح عنوانها في العدد السابع : « حقائق في خيالات » ، ثم صارت بعد « الوجديات » .

وفي العدد الثالث استحدث باباً بعنوان : « الشبهات العصرية على الأديان ونفيها عن الإسلام » . وقد استمر هذا الباب طوال السنة الأولى ، ثم استأنفه بعد ذلك في السنة الثالثة .

وكذلك افتتح في هذا العدد باباً للإجابة على أسئلة القراء . وقد استكمل في هذا الباب ، في هذا العدد ، وفي عدد تال ، الموضوع الذي كان بدأه في العدد الأول عن « إثبات وجود الله تعالى » . ولا ريب أن هذا الباب قد وثق ما بينه وبين قرائه ، إذ أتاح له من الاتصال بهم والتعرف إلى اتجاهاتهم وفوازهم ما لم يكن له بد منه ، كما فتح له أبواباً من القراءة والاطلاع والمراجعة تقتضيها هذه الأسئلة والإجابة عليها .

وكل هذه الأبواب كان يفرد بتحريرها .

والباب الوحيد الذى وكله إلى غيره هو الباب الذى كان يحرره الدكتور محمود السركى ، عن التربية الصحية . وقد قدم له محمد فريد وجدى بقوله :
« لما كانت هذه المجلة إسلامية ، وكان غرض الإسلام سعادة الحياتين :
الدنيوية والآخروية ، وحفظ الصحتين : الجسمية والروحية . رأينا ألا نغفل
أمر الجنان ، كى لا تقع فى تفريط ليس له غفران » .

على أن هناك طائفة من المقالات لم تكن تدخل نصاً فى هذه الأبواب
وإن وقعت فى صميم أغراض المجلة ، وبعض هذه المقالات يعالج موضوعاً
واحداً كمقالاته عن الدين عامة ، وأن الإسلام هو دين الفطرة ،
وبعضها كانت تحفره إلى كتابته مناسبة عرضت ، كمقاله عن الصلاة والصيام
فى إقبال شهر رمضان ، ومقاله عن « القرن التاسع عشر » وآثاره على
الغربى والشرقى من جهة التدين ، فى ختام ذلك القرن ، ومقاله عن
« الجامعة الإسلامية » بمناسبة كثرة الحديث عنها فى تلك الأيام .

واستمرت مجلة الحياة تصدر تباعاً ، أول كل شهر هجرى ، من شهر صفر
سنة ١٣١٧ ، حتى شهر رجب ، سنة ١٣١٨ . أى من شهر يونية سنة ١٨٩٩
إلى شهر أكتوبر سنة ١٩٠٠

وبعد هذه الشهور الثمانية عشر انقطعت عن الصدور ، دون إنذار
سابق ، ودون أن يعرف أحد — من غير خاصة صاحبها — سبب توقفها .
وحين عرض فريد وجدى لهذا التوقف عندما استأنف إصدارها بعد
خمس سنين لم يقل أكثر من أنه بدا له أن يعطلها لأسباب عديدة .

وإذا نحن حاولنا — من خلال ما بين أيدينا من ملاسبات — أن
نتلص ما لعله يكون من هذه الأسباب ، وجدنا فى ذيل آخر صفحة من

صفحات آخر عدد (وهو العدد السادس من السنة الثانية) اعتذاراً مقتضياً عن عدم استطاعته الإجابة على الأسئلة التي وجهت إليه ، « مراعاة لحالتنا الصحية » ، فنعلم من هذا أنه كان ، إذ ذاك ، يعاني ضعفاً صحياً ، وإن كنا لا نعلم مدى هذا الضعف ، إلا أنه كان يحول بينه وبين ممارسة بعض وجوه نشاطه في الدرس والمراجعة والكتابة . فهل كان ذلك هو السبب في توقف الحياة ؟ أم أن هذه « الحالة الصحية » كانت أثراً من آثار الاجهاد الفكري والعصبي الذي كان يعانيه في أثناء إصدار هذه المجلة ومواجهة شواغلها وتكالييفها ، مع قلة تجربته في تصريف أمورها المادية ؟

لقد أنشأ هذه المجلة استجابة للثقل العليا التي كانت تلح عليه وتتخيل له وتستبد بوجدانه ، وكان ذلك - إلى جانب غرارته فيما يتصل بالأمور المادية - مما جعله يستعين بهذه الأمور أو يتجاهلها ، نلج ذلك في الفقرة التي كتبها في العدد الثاني ، وكان حين أصدر العدد الأول جعل - بواسطة بعض أصدقائه - يبعث به إلى بعض الأشخاص الذين كان يتوسم فيهم تشجيعه وشده أزره . ولكن بعض هؤلاء ردوه إليه ، فأذاه ذلك - ولا ريب - وأثار كبرياءه ، وكان مما كتب في ذلك :

« ... ونحن في هذا المقام نفصح لقراءنا أننا لم نقصد بهذا العمل إلا أداء خدمة حقيقية للامة والملة ، تحققنا أنها انجع دواء وأشرف غاية ؛ فن رأينا أننا نشكرناه ، ومن لم يرر أننا احترمنا فكره ، ورجواناه أن يرد إلينا المجلة ، فلسنا محتاجين لأية مساعدة مادية والله الحمد . بل إننا أسسنا هذا العمل وفي نيتنا صرف عليه لا التكسب منه ؛ وفي زهادة قيمة الاشتراك^(١) ، مع مانوزعه من الأعداد الكثيرة مجاناً ، دليل لمن يتأمل » .

(١) كانت قيمة اشتراك مجلة الحياة خمسة عشر قرشاً في السنة .

ولكن هذه المثالية التي لم تكن ترى في هذه المجلة إلا أنها « خدمة للأمة والملة » ، وأنها أنجع دواء وأشرف غاية ، فما ينبغي أن تكون — وهى بهذه المثابة — وسيلة تكسب ، كما لا ينبغي أن تحول دونها عقبات المادة أو تتأثر بعقاييلها ، فليتها يكون البذل وتهدون التكاليف ، هذه المثالية لم تلبث أن اصطدمت بالواقع ودخلت في صراع معه . وقد تمثل هذا الواقع في أمرين : فيما كان يستلزمه إصدار المجلة من تكاليف مادية ، تنضاعف شهراً بعد شهر ، وفي أخلاق الناس وسلوكهم وعاداتهم . وقد تكشفوا له في هذه العلاقة التي نشأت بينهم وبينه ، حين كانوا يبعثون إليه بأن يعتبرهم مشتركين في مجلته دون أن يعنوا بإرسال قيمة اشتراكهم ، وإذا هو يواجه بما لم يكن يقدر من تكاليف تفوق طاقته وتتجاوز مدى تديره ، فإذا بعث إليهم يرجوهم سداد الاشتراك لم يجد الاستجابة من كثير منهم ، وتنضاعف الخسائر ، وينشأ الصراع بين المثالية والواقع ، ولا نجد بداً في نهاية السنة الأولى من أن يقف لإرسال المجلة إلى أربعائة وخمسين مشتركاً لم يسددوا اشتراكاتهم .

ولكنه — مع ذلك — لم يستسلم في هذا الصراع ، بل مضى في إصدار مجلته في السنة الثانية ، وقد زاد صفحاتها ملزمة تزيد — ولا ريب — أعباءه المادية . وما زال سلوك عدد من المشتركين كما هو ، وما زالت خسائر المجلة تنضاعف ، كما ترى ذلك فيما نشره في الصفحة الأخيرة ، من العدد الخامس من هذه السنة ، إذ يقول — بما لا نرى بأساً في إيرادها هنا ، لدلالته على ما نحن بصدد من إبراز ملامح شخصيته وملاسات حياته في هذه الفترة — :

«إننا وإن كنا لا نود فائدة مادية من هذه المجلة، إلا أننا لا نود أيضاً أن نخسر فيها كثيراً، وإننا لم نتشجع على تحمل كل هذه الخسائر المالية إلا لما نعلمه من شغف الخاصة والعامة بمطالعة ما نكتبه ونجهد فيه أنفسنا

شهرياً . وقد أرسلنا فى الشهر الماضى إعلانا لكل قارىء ، وانتظرنا النتيجة منه ، فقولبنا بالإغضاء التام ، مع أنه لم يوجد واحد من الذين أرسلنا إليهم ذلك الإعلان إلا وهو طالب الاشتراك بنفسه وبغاية الامتنان . نعم إن إرسال تلك القيمة مهما كانت زهيدة فيه بعض التكاليف على حضراتهم . ولكن إذا كانوا لا يودون تعب بضع دقائق مرة فى كل سنة ، فى سبيل تشييد مشروع ضرورى مثل هذا ، فهل يروق فى أعينهم بعد ذلك أن نعطل أوقاتنا ونشغل أفكارنا ونبدل دنانيرنا كل يوم ، بل كل ساعة ، ثم نلجأ بعد ذلك إلى تكرار طلب قيمة نأف من ذكرها . نظن أن ليس فى قرائنا واحد تروق لديه هذه الحالة . وإننا لم ننشبت بطلب الإسراع فى دفع هذه القيمة إلا تحامياً من مثل خسائر السنة الماضية ، فإن أربعمائة وخمسين مشتركاً تأخروا عن الدفع ، فقطعنا عنهم المجلة . ولا يخفى ما لحقنا من الخسائر من جراء هذا الكسل . وبناء على هذا كله نؤمل من حضرات القراء ألا يلجئوا هذه اليراعة لأن تنتزل من الكتابة فى تلك المباحث الجلييلة إلى تحرير أمثال هذه الطلبات النافذة .»

وفى هذه السطور نحس بمدى الصراع الذى كان يتمثل فى نفس محمد فريد وجدى بين مثاليته التى كانت تحفزه بقوة ودأب إلى المضى فى تشييد مشروع الحياة ، حتى يبلغ غايته التى كانت ماثلة فى نفسه؛ وبين الضرورات المادية والأزمات المالية التى كانت تحاول أن تدفعه عنه، وتصرفه عن المضى فيه .

لقد كان إصدار هذه المجلة تجربة - ولا ريب - حبيبة الى نفسه أثيرة عنده، إذ كانت استجابة لتلك المثالية الغالبة عليه؛ ولكنها كانت فى الوقت نفسه تجربة قاسية مريرة بما جعلت تعرض عليه من صور فى الحياة بغیضة ، وما أخذت تقييم فى طريقه من عوامل التشييط ودواعى النكوص ، وما كانت تثيره فى نفسه من ذلك العراك .

وها هو ذا يلح - فى كراهية ومضض - فى دعاء المشتركين أن يسارعوا الى مؤازرته بتسديد اشتراكاتهم . وأن يكونوا عوناً فى الإبقاء على ذلك المشرع ، حتى لا تتعرض « الحياة » لمثل ما تعرضت له فى السنة الماضية من خسائر ، وحتى لا تواجه ما يهددها من التوقف عن الصدور . وها هو ذا يتلطف فى الدعاء غاية التلطف ، ويتفرق فى التنبيه غاية الترفق ؛ لعله يثير نخوة المشتركين ، فيبادروا الى تلبية دعائه ، ويعينوه بتسديد اشتراكاتهم على انقاذ المجلة من المصير الذى يهددها . ولكن يبدو أن حظ هذا الدعاء لم يكن أفضل من حظ دعائه فى السنة الأولى . فلم يلبث أن تلاشى فى مطاوى الاستخفاف والإهمال وسوء التقدير ، حتى لم يعد فى طاقته أن يستمر فى مواجهة هذه الخسائر المتضاعفة ، ومواجهة ما لعله كان يصحبها من لوم ذويه وتثريبهم ، وما كان يترتب على ذلك كله من ضعف صحة وكمال قوته . وبذلك توقفت المجلة عند العدد السادس ، وهو العدد الوحيد الذى صدر بعد ذلك الدعاء ، أو ذلك « الاستلقات المهم لحضرات القراء » ، كما كان عنوانه .

وبذلك انتهت هذه المرحلة من مراحل مجلة الحياة . وسنتحدث إن شاء الله ، عن مراحلها الأخرى فى مكانها من سياق هذا البحث .

- ٦ -

لم تكن مجلة الحياة بنطاقها الضيق وصفحاتها المحدودة وتخصصها الدقيق لتستغرق طاقة محمد فريد وجدى، أو تتسع لوجوه نشاطه المختلفة؛ فكان يجد في الصحافة اليومية مجالا ثانيا يمارس فيه نشاطه الفكرى ، بما يكتب من فصول في مسائل الدين والاجتماع ، بما يتصل ببعض الأحداث العامة .

وهناك صحيفتان نعرف أنه اتخذ منهما — في ذلك الوقت — متنفساً له ، ومجالاً حيوياً يمد إليه نشاطه ، وهما اللواء والمؤيد .

أما اللواء فإنه يحكى لنا قصة اتصاله به ، ومشاركته في تحريره ، في سياق حديثه عن مصطفى كامل وتاريخ صلته به ، إذ يقول إنه تلقى منه ذات يوم — وكان إذ ذاك محرر مجلة الحياة ، وكان مصطفى كامل يستعد لإصدار اللواء — خطاباً يؤذنه فيه بعزمه على إصدار جريدته ويدعوه فيه إلى إمدادها ببعض المباحث الدينية والاجتماعية . فوجدت هذه الدعوة منه قلباً مفتوحاً ، وسارع بتبليتها ، وجعل يوالى إرسال مقالاته إلى اللواء حتى كتب له نحواً من عشرين مقالة في مواضيع اجتماعية ودينية مختلفة ، كما يقول ؛ إلى أن حدث شيء من سوء التفاهم بينه وبين مصطفى كامل ، ربما عرضنا له في مناسبة أخرى . فثقل نشاطه إلى جريدة المؤيد ، أو بعبارة أخرى أعاده إليها .

ذلك أن جريدة المؤيد كانت هي الجريدة التي اتخذها لنشر مقالاته قبل ظهور جريدة اللواء (في ٢ يناير سنة ١٩٠٠) ؛ وفيها نشر مقالاته في الرد على كتاب تحرير المرأة لقاسم أمين ، بعد ظهوره سنة ١٨٩٩ . وهي

المقالات التي أشار إليها في سياق حديثه الذي أوردناه قبل في تحقيق سنة ميلاده .

كما كان من المقالات التي نشرها في المؤيد أيضا بعد ذلك في شهر أبريل سنة ١٩٠٠ ، مقالاته التي شارك بها في حركة الرد على هانوتو .

وهانوتو هو أحد علماء فرنسا وكبار مؤرخيها، وواحد من أبرز ساستها وأعضاء مجمعها العلمي ؛ وقد عرف بكتابه عن الكاردينال دي ريشيليو وبحثه في تاريخ الأمة الفرنسية .

وكان قد نشر في جريدة الجورنال الفرنسية مقاليتين عن الإسلام والمسألة الإسلامية ، شاب فيهما حديث العلم بحديث السياسة ، وتحدث فيهما عما سماه المدنية الآرية المسيحية التي وقفت الإسلام وصدت انبعاثه ، وعن الصراع بينها وبينه قديما وحديثا . وقد رد الخلاف بينهما إلى الخلاف بين مذهبين أساسيين في إدراك الإنسان للآلوهية وموقفه منها : أحدهما « يقول بتناهي الربوبية في العظمة والعلو ، وجعل الإنسان في حضيض الضعف والوهن . ويذهب الثاني إلى رفع مرتبة الإنسان ، وتخويله حق القربى من الذات الإلهية ، بما فطر عليه من إيمان وإرادة ، وبما أتاه من أعمال طيبات وحسنات » .

وعن هذين المذهبين اختلف سلوك الإنسان في الحياة ، « فالنتيجة الطبيعية للاعتقاد بمذهب الفريق الأول هي تحريض الإنسان على إغفال شئون نفسه ، وبث القنوط في قواده ، وتثبيط همته وإيهان عزيمته ، بينما تسوقه نتيجة الاعتقاد بمذهب الفريق الثاني إلى ميدان الجلال والعمل وتلقى به في غمرات التنافس الحيوى » .

ويرى هانوتو أن هذين المذهبين تمثلا في العالم القديم بالبوذيين الذي دانوا بالمذهب الأول ، وقدماء اليونان الذين دانوا بالمذهب الثاني .
ثم يقول :

« وقد ظهرت على أطلال العالم القديم ، وبعد خمسمائة عام من انقضائه ، ديانتان : إحداهما ربانية والثانية بشرية ، تمثلان ذينك المذهبين المتناقضين ، ولهما بتلطيف في التناقض . أما الأولى فهي الديانة المسيحية الوارثة بلا واسطة لآثار الآريين ، والمقطوعة الصلات بالمرّة مع مذهب السامية ، وإن كانت مشتقة منه وعصنا من دوحته ، ومن خصائص هذه الديانة ترقية شأن الإنسان بتقريبه من الحضرة الإلهية ، في حين أن الديانة الثانية وهي الإسلام ، المشوبة بتأثير مذهب السامية ، تنحط بالإنسان إلى أسفل درك ، وترفع الإله عنه في علاء لا نهاية له »

ونقلت جريدة المؤيد هاتين المقالتين إلى العربية ، ونشرتهما على صفحاتها . ولم يكاد يظهران حتى انبرى لنقد ما فيهما عن الإسلام وتقنيد الدعاوى المبنية على فهم خاطيء له ، الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ؛ وانبعثت من بعده حركة نقد قوية نشيطة شارك فيها كثير من العلماء والأدباء .

وكان ممن شارك فيها ذلك الشاب الناشئ محمد فريد وجدى « محرر مجلة الحياة » — كما كان يوقع مقالاته الثلاث التي نشرها بعنوان : « نظرة على مقال المسيو هانوتو » ، وتناول فيها قضية الدين التي جعلها هانوتو قضية عنصرية ، تتبع الآرية والسامية ، وتختلف بالخلاف المزعوم بينهما ، أما هو فقد تكلم عن الدين عامة من حيث هو أمر فطري في طبيعة الإنسان وكيانه ، ومن حيث تطوره وصوره في خلال القرون ، إلى أن تيقظ العقل ، واتخذ مكانه في حياة الإنسان فنشأ العلم

— ٦٤ —

وبدأ الصراع بينه وبين الدين ، حتى إذا انتهى من هذا العرض ذهب إلى أن الإسلام ، الذى رماه هانوتو بأنه الدين الذى انحط بالإنسان إلى أسفل درك إنمما هو الدين الذى يمثل المرحلة الأخيرة من ذلك التطور ، وأنه هو « دين الفطرة المنشود » كما هو عنوان المقال الثالث والآخر^(١) .

(١) جريدة المؤيد ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ابريل سنة ١٩٠٠ .

- V -

وفيما كان محمد فريد وجدى مشغولا بتحرير الحياة وإدارتها وتصريف شئونها ، وكتابة المقالات الدينية والاجتماعية يبعث بها إلى المؤيد تارة وإلى اللواء تارة أخرى ، كان - في الوقت نفسه - دأبا على درس بعض المسائل التي عرضت له درسا متعمقا مستقصيا ؛ يتناولها من جميع جهاتها ، ويتتبعها في سائر مصادرها ؛ مصطنعا في ذلك أسلوب التأليف .

وكانت مسألة الدين ، باعتباره أصلا لإنسانيا عاما ، من أول ما جعل يشغله ويصرف تفكيره ، ويحمله على تتبعه وتقصى الآراء المختلفة فيه إذ كان يرى أن فهم الدين الإسلامى بخصوصه فهما صحيحا قائما على المنهج العلمى ، ينبغى أن يكون مسبوqa بفهم الدين عامة .

ويبدو أن التفكير في هذه المسألة ودرسها يرجع إلى الوقت الذى كان يضع فيه كتابه : «تطبيق الديانة الإسلامية على نوااميس المدنية» . فقد عقد فيه فصلا عن «ماهية الدين» . قال فيه ، «نحن هنا ، قبل أن نتكلم عن ماهية الدين بالمعنى المراد للإسلام ، يجب علينا أن نتكلم على ما يفهمه علماء أوروبا من هذه اللفظة . وقد أداه البحث عن ماهية الدين عند علماء أوروبا إلى الوقوف على آراء أصحاب الديانة الطبيعية ، وهى الديانة التى تقوم على أصل التدين فى عمومه . واقتضته الدراسة التى كان يقوم بها أن يحاول استخلاص مبادئ هذه الديانة ، وتعرف وجوه التقابل بين مبادئ الإسلام وبينها .

ثم زاه بعد ذلك ، فى أول عدد يصدره من مجلة الحياة ، يعقد فصلا

(م ه - محمد فريد)

عن « إثبات وجود الله تعالى » ، وفي نيته - كما رأينا من قبل - أن يفتح بهذا الفصل بابا من أبواب الحياة . وإن كان اكفى بعد بأن يعود إلى هذا الموضوع بين وقت وآخر ، في صورة جواب على سؤال . . . وكأنما بداله ، منذ ذلك الوقت ، حين رأى تشعب البحث واتساع جوانب الموضوع ، أن يجعله موضوع كتاب خاص . لأنه أوسع من أن يكون بابا من أبواب الحياة ، أو لأنه يحتاج من الدراسة المتأنية المستفيضة المنظمة مالا يتفق مع دواعي النشر .

كما زاه في أثناء إصداره الحياة ، وفي أواخر سنتها الأولى ، يتناول هذا الموضوع فيما كتبه في جريدة المؤيد ، ردا على هانوتو . كما اشرنا إلى ذلك في الفصل السابق .

فإذا كان العدد الثاني من السنة الثانية من الحياة فقد اعلن ان « مشيء هذه المجلة عزم على طبع كتاب له بعنوان : (الحديقة الفكرية في إثبات وجود الحضرة الإلهية بالأدلة الطبيعية) . وقال : « ان موضوع إثبات وجود الله تعالى بالأدلة العلمية الجديدة ، على مقتضى الأسلوب الحسى الذى لا يصح المراء فى مقدماته ولا نتائجه ، لاستنادها على البدائى العلمىة والمشاهدات التجريبية . وقد سرد فيه ما يقيمه الملاحظة من الشبه الجديدة وكر عليها بالأدلة التى من نوعها ، مستظرا بالفلسفة الحسية ، وهى فلسفة العصر الحاضر ، لا بالقضايا المنطقية والفلسفة العقلية » كما نشر فى هذا العدد فصلا منه : وهو الفصل الأول من فصوله ، بعنوان « الإيمان والإنسان » ؛ وكذلك فعل فى العدد الثالث : فقد اعلن فيه مرة أخرى عن الكتاب ، بعد ان حور قليلا فى عنوانه ، واثبت فهرست موضوعاته ، كما نشر فيه قطعة من مقدمته .

فإذا كان العدد الرابع الصادر فى أواخر اغسطس (سنة ١٩٠٠) :

فقد اعلن عن الشروع فى طبعه ؛ وكان ذلك - فيما يبدو - بعد أن اجتمع له عدد من المشتركين تغطى اشتركااتهم نفقات طبعه ، او جزءا كبيرا منها ، حتى لا يتعرض لمثل الخسائر التى يتعرض لها فى مجلة الحياة .

وصدر الكتاب فى سنة ١٩٠١ بعنوان : « الحديقة الفكرية فى إثبات الله بالبراهين الطبيعية » ، وقد عالج فيه موضوع وجود الله ، أو ما يسميه فى المقدمة بالمسألة اللاهوتية ، معالجة فلسفة تاريخية ، عرض فى خلالها الآراء والمذاهب المختلفة فى الإيمان بالله ، مقررًا فى الفصل الأول من فصول الكتاب أن الإيمان بوجود الله أمر ذاتى بالقياس إلى الإنسان ، لا يحيد عنه . فهو موجود فى قرارة نفسه ، وفى صميم تكوينه . كما انتهى فى هذا الفصل إلى النتائج الآتية :

« أولا : لا ملحد فى النوع الإنسانى على الحقيقة ونفس الأمر ، وأن غاية المسألة هى تجاوز فى الالفاظ ، وتناقش فى التعبيرات .

ثانياً : أن العلم هو الباعث الأول للاعتقاد والإيمان ، وأكبر سائق إليه ، وأن الإنسان كلما ازداد علماً ازداد يقيناً .

ثالثاً : أن الغاية التى وصل إليها النوع الإنسانى من الإيمان هى مآفره الإسلام من عقيدة التوحيد والتنزيه ، لأنها عين ما عليه الفطرة الإنسانية .

رابعاً : أن الشبه والشكوك ما تولدت ولا تتولد إلا من حيدان الإنسان عن دينه الفطرى ، وهو الإسلام .

خامساً : أن زمان الإلحاد أو (سوء التفاهم) قد انصرم وإنقضى . وما إن انتهى من ذلك حتى إنتقل إلى « الإيمان خلال القرون » ، وقد قسم الأدوار التى مر بها الإيمان إلى أربعة أدوار : دور الفطرة

الأولى، ودور الفلسفة أو الحكمة، ودور العلم الطبيعي والفلسفة الحسية، ثم أخيراً دور الفطرة، مرة أخرى .

وقد عقد لكل دور من هذه الأدوار فصلاً خاصاً به، شرح فيه أمر الإيمان بالله فيه . وكان طبعياً أن يقف عند دور العلم وقفة طويلة فلم يكتف بالفصل الذي عقده عن الإيمان وما تعرض له فيه، وإنما أعقبه بفصول ثلاثة تنصل به، وتحقق أغراض المؤلف، وأول هذه الفصول عقده للكلام عن « شبه الملاحدة من الماديين ووجه فسادها، كما جعل عنوان الفصل الثاني منها: « الإلحاد أمام العلم »، أما الثالث فعنوانه: « المادة وما وراء المادة . لا إلحاد بعد اليوم » .

فإذا فرغ من هذه الفصول المتعلقة بالدور الثالث أخذ في الكلام عن الدور الرابع، فعقد له فصلاً جعل عنوانه: « رجوع الإنسان إلى دور الفطرة الأولى، الإسلام: دين الفطرة » .

وبهذا الفصل ينتهي الكتاب .

- ٨ -

في الوقت الذي كان محمد فريد وجدى مشغولا فيه بإعداد كتاب «الحديقة الفكرية» ، والتبليغ لإصداره ، أواخر سنة ١٩٠٠ ، تجددت الحركة التي كانت قد ثارت منذ عام مضى ، بظهور كتاب قاسم أمين « تحرير المرأة » مقررًا مساواة المرأة بالرجل ، وداعيًا إلى رفع الحجاب الذي ضرب عليها ، ومشاركتها الرجل في الأعمال التي يمارسها وينفرد بها ، « فأقامت هذه الدعوة الجديدة الرأي العام وأقعدته ، واستفزته استفزازًا لم يعهد فيه ، حتى ولا في المسائل السياسية الكبرى » ، كما يقول محمد طلعت حرب في مقدمة كتابه الذي أصدره في ذلك الوقت ، بعنوان « فصل الخطاب في المرأة والحجاب »^(١) . واشتد دوى هذه المسألة ، وترددت أصداؤها في الجرائد والمجلات والمجالس ، فصولًا تحرر ، وكتبًا تؤلف ، وقصائد تنظم وتلشد ، واصطبغت صبغات مختلفة بين الدين والتقاليد والأخلاق ؛ فهذه الدعوة التي جاء هذا الكتاب بها هي ، حينًا ، دعوة إلى الخروج على مبادئ الدين ، وحينًا آخر دعوة إلى التحلل من حواظ الشخصية المصرية أو الإسلامية ، في وقت تترادف فيه المعاول الاستعمارية لتقويضها ، ومرة ثالثة تعريض الأخلاق لعامل جديد من العوامل التي أخذت تداخلها وتعمل على إفسادها وتحليلها .

وكان يقابل بعض ما في هذه الأصدااء من غلو، غلو في الطرف الآخر الذي كان يمثله قلة من أنصار هذه الدعوة ، كان يرى في قاسم أمين شخصية

(١) هذا هو عنوان كتابه الذي أصدره سنة ١٩٠١ ، رداً على كتاب المرأة الجديدة وهو ثانى كتابين له في هذا الموضوع . أما كتابه الأول فصدره قبل ذلك بعامين ، سنة ١٨٩٩ ، رداً على كتاب قاسم أمين الأول : تحرير المرأة ، وجعل اسمه : تربية المرأة والحجاب .

جديرة بأن تسمى «لوثر الشرق» ، كما كان يجعله نظيرا لجمال الدين الأفغاني
فجمال الدين محرر الرجل ، وقاسم أمين محرر المرأة ، إلى غير ذلك .

وأبعدت هذه الأصداة التي أثارها كتاب «تحرير المرأة» ، ف تجاوزت
مصر إلى العالم الإسلامي ، العربي وغير العربي ، وظهرت في بعض الرسائل
التي كانت تصدر عنه ، وبعض الكتب التي ألقت انفعالا بها ومشاركة
لها ، كذلك الكتاب الذي كتبه أحد علماء الشام ، مختار بن أحمد مؤيد باشا
العظمى وسماه : «فصل الخطاب ، أو تغليس إبليس من تحرير المرأة
ورفع الحجاب» . وقد كتبه في نفس العام الذي صدر فيه كتاب تحرير
المرأة ، وطبع في بيروت ، سنة ١٣١٨ .

وكان محمد فريد وجدي قد شارك في هذه الحركة التي أثارها كتاب
قاسم أمين الأول : تحرير المرأة ، بمقالات نشرها في جريدة المؤيد .
كما أشرنا إلى ذلك من قبل ، وكما حكى هو ذلك عن نفسه (١) . وإن
كننا لم نوفق بعد للوقوف على هذه المقالات . وحين تجددت هذه الحركة
التي لم تسكن سكنت بعد ، بظهور كتاب قاسم أمين الثاني «المرأة الجديدة»
بعثه ذلك إلى خوض الميدان مرة أخرى واستئناف مبادئه بمقالات
المؤيد في العام الماضي .

وأكبر الظن أنه كان قد أتيح له في هذه الفترة ، بما نعرف عنه من
تطلع دائم إلى المعرفة ، ونهم في القراءة والمراجعة ، وحرص على تعقب

(١) «... واتفق أن المرحوم قاسم بك أمين نشر كتابا تحت عنوان (تحرير المرأة)
ذهب فيه إلى وجوب خلع المرأة المسلمة للحجاب ، فانبرت للرد عليه في جريدة المؤيد ، ونال
هذا الرد من جمهور القارئ إعجابا عظيما ، والممت في آخر الرد بطرف من أصول مدنية أوروبا
والمدنية الإسلامية وتمنيت لو يهود المسلمون إلى أصولها ، ليعبوا حياة طيبة ، ويستعيدوا بالعودة
إليها مجدهم السابق» - دائرة معارف القرن العشرين ، المجلد الرابع ، ص ١٦٨ . الطبعة الثانية

المسائل فى أصولها ، أن يتعرف إلى « مسألة المرأة » فى فرنسا ، ويتبين أسبابها وملابساتها ومظاهرها ، ويقرأ أطرافا من الدراسات التى قامت حولها .

وإذا كانت هذه المسألة ترجع بأصولها ، فى فرنسا ، إلى الثورة الفرنسية ، (فى أواخر القرن الثامن عشر) ، وميثاق حقوق الإنسان الذى صدر عنها ، والقوانين التى جاءت بها ، فإنها لم تتخذ فى المجتمع الفرنسى صورة بارزة غيرت وجهه وأثارت كثيراً من الجدل فيه : إلا بالانقلاب الصناعى ، وما نشأ عنه من تحول اجتماعى كبير ، وظروف اقتصادية خاصة ، كان مما قصت به ضروراتها أن تشارك المرأة - بصورة ما - فى النشاط الصناعى وغيره من وجوه النشاط الاقتصادى . وكان هذا فى حقيقة الأمر انقلاباً كبيراً فى حياتها ، أثار كثيراً من الملاحظات ، وبعث كثيراً من الدراسات . وكان من هذه الدراسات ما ينكر هذه المشاركة التى اندفعت المرأة - أو دفعت - إليها ، وعانت الكثير فيها ، كما فقدت فيها غير قليل من خصائصها .

وهذه الدراسات هى التى وقع عليها محمد فريد وجدى ، وهو يدرس هذه المسألة ، ويتبناها مناقشة كتاب المرأة الجديدة لقاسم أمين ، ومن ذلك الفصل الذى كتبه جيوم فريرو^(١) فى مجلة المجلات الفرنسية وهى - فيما يبدو - من أول ينايع ثقافته ، وقد قال فيه : « إنه يوجد فى أوربا كثير من النساء اللواتى يتعاطين أشغال الرجال ، ويلتجنن بذلك إلى ترك الزواج بالمرءة ، وهؤلاء يصح تسميتهن بالجنس الثالث ، أى أنهن لسن برجال ولا نساء ، لمنافتهن للأول طبيعة وتركيباً ، وللأخريات وظائف وأعمالاً ؛ ولهن بمعيشتهن فى تلك الحياة المصطنعة وانزعاجهن

أنفسهم من وظائفهن الطبيعية التي خلقن لها جسما وروحا ، قد تغيرت إحساساتهن عن إحساسات بنات جنسهن ، وصرن في حالة تشبه الما ليخوليا ، فكان الفطرة البشرية تقيم عليهن الحجة بلسانها الفعلي على إغفالهن حقوقها . كما قال في هذا الفصل أيضا : « وقد ابتدأ علماء العمران يشعرون بوخامة عاقبة هذا الأمر المنافي للسنن الطبيعية . فإن هاته النسوة بمزاحمتن الرجال صار بعضهم عالة على الجمعية ، لا يجدن ما يشتغلن به ، ولو تبادى الحال على هذا المنوال لثأ منه خلل اجتماعي عظيم الشأن » .

وفي هذه المراجعة الأثيرة عنده يقرأ لجول سيمون - صاحبه عندما كان يكتب كتابه : تطبيق الديانة الإسلامية على نواميس المدنية ، ومتحدثا عن الديانة الطبيعية - كلاما عن المرأة يقول فيه : « المرأة التي تشغل خارج بيتها تؤدي عمل عامل بسيط ، ولكنها لا تؤدي عمل امرأة » . أو يقول : « صار النساء الآن نسا جات وطبا عات وقد استخدمتهن الحكومة في معاملهن ، وبهذا فقد اكتسبن بعض دريهمات ، ولكنهن - في مقابل ذلك - قد قوضن دعائم أسرهن تقو يضا » ، أو ما يقوله في فصل آخر كتبه في هذه المجلة عن كتاب للعلامة لوجوفيه تعليقا على قوله : يجب على المرأة أن تبقى امرأة -- : « نعم يجب أن المرأة تبقى امرأة ، فإنها بهذه الصفة تستطيع أن تجد سعادتها ، وأن تهبط لسواها . فلتصلح حال النساء ، ولكن لا تغيرها ، ولنحذر من قلبهن رجالا لأنهن بذلك يفقدن خيرا كثيرا ، ونفقد نحن كل شيء ، فإن الطبيعة قد أتقنت كل ما صنعتها فلندرسها ، ولنسع في تحسينها ولنحسن كل ما يبعد عن قوانينها وأمثلتها ... يقول بعض الفلاسفة : إن الحياة مخوفة بالمكاره . ولكنهم ربما قالوا ذلك لأنهم لم يذوقوا طعم الحب طول عمرهم . أما أنا فأقول : إن الحياة

طبية هنيئة ، ولكن بشرط أن يعلم كل من الرجل والمرأة المكان الذى خصصه الله تعالى لكل منهما .

إلى كثير من مثل هذه الآراء والأقوال لأوجست كونت وبرودون وفورييه ، ممن شهدوا هذا التحول الكبير فى وضع المرأة وحالتها ، فهم بأسون لها ويشفقون مما صارت إليه فى صراع الحياة ، كما يشفقون من النتائج المترتبة على ذلك فى الأسرة وفى المجتمع عامة .

فهذا أحد وجوه المسألة النسائية فى الغرب كما مثلتها محمد فريد وحدى قراءاته . وعنده أن المرأة هنالك إنما صارت إلى هذا المصير بحكم الضرورات الاقتصادية التى سيطرت على المجتمع الأوروبى . وإذا ليس فى حياتنا — إذ ذاك — مثل هذه الضرورات ، فإن الدعوة إلى مشاركة المرأة الرجل فى أعماله ، وما يقتضيه ذلك من رفع الحجاب ، دعوة قائمة على التقليد ، صادرة عن هذه النزعة .

وبذلك أخذ فى وضع كتابه هذا الذى أخرجه فى العام التالى لظهور كتاب قاسم أمين ، سنة ١٩٠١ ، وسماه : « المرأة المسلمة » وكأنما أراد أن يعارض بهذه التسمية تسمية قاسم أمين كتابه « المرأة الجديدة » .

وإذا كانت مسألة المرأة بالصورة التى عرضها قاسم أمين قد نشأت فى مصر نشأة غير طبيعية ، إذ نشأت عن نزعة التقليد لأوروبا ، فقد عالج فى مقدمة كتابه قضية التقليد بين الأمم ، من وجهة نظره ، فقال :

« إننا رأينا بعد طول البحث والتدقيق واستقراء مجريات الأحداث التاريخية أنه يجب أن يوجد بين الأمة المقلدة ، والأمة المقلدة تناسب فى حافظتيهما الرئيسيتين ، ليكون ذلك التناسب كافلا أميناً لعدم تغلب أقواهما على أضعفهما وتحليل عناصرها ، لأنى لا أعرف التقليد فى عرف العمران إلا استعداد الأمم الضعيفة لقبول مؤثرات الأمم القوية ، والاستسلام

للتحرك بحركتها . ولا يمكن أن تؤثر تلك المؤثرات عليها ، أو تعمل تلك الحركة فيها عملها المطلوب إلا بإماتها كل مقاومة تقف في سبيلها . حينئذ تعدو الأمة القوية على الضعيفة فتحللها تجليلاً ، وتمثل عناصرها بجسمها تمثيلاً ، بخلاف ما لو كان بين الحافظين الرئيسيتين تناسب ، فإنه لا يوجد بينهما تنارع ما ، فتقبل إحداها ما تقبله من الأخرى بدون خطر على كيانها . والناظر في أحوالنا بنظر العمراني المدقق يجد حافظة أمتنا الرئيسية لا تشابه من كل وجه حافظة أية أمة من الأمم التي يراد أن تحتذى مثالها ، في شؤوننا الحيوية ، فتكون النصيحة بالتقليد ، على ما قدمنا نصيحة بالاستخذاء للتلاشي .»

ثم يقول ، بعد أن يضرب المثل بشعوب الأمة الأمريكية : « كلامي هنا خاص بالتقليد في الشئون الحيوية . أما الامور الصناعية فإنها لا تنأى إلا به ، ولا عار على أمة من ذلك ، كما لا خوف على كيانها من الفساد بسببه .»

ولكن مسألة المرأة — مع ذلك — عندنا هي فيما يرى من الخطر بحيث يخلق أن تسمى مسألة المسائل كلها ، لما بينها وبين سائر أصولنا الجوهرية من العلاقة الأكيدة ؛ كما هو نص عبارته ، مما يجب معه أن يتكاتف محبو الترقى على تمحيص حقائقها .

ويختم هذه المقدمة بقوله مشيراً إلى غايته ، دالاً على شيء من منهجه :

« بناء على هذا ، وعلى تعطش الأمة اليوم لمعرفة خير سبيل لتهديب بناتها تهدياً ملائماً لتركيبها ، رأينا أن نتكلم على حقيقة المرأة ووظيفتها ومواهبها وطريق كمالها ، مستنديين على مقررات العلوم الصحيحة المجمع عليها ، وأن ننبت للناس عموماً ، بالتحليل العمراني الدقيق ، أن الحجاب

ضرورى لها ، ليس لعدم الثقة بها ، ولكن لكونه الضمان الوحيد لاستقلالها وحريتها بشهادة التاريخ ومجريات الحوادث الاجتماعية في العالم وأن نرد على كل شبهة قامت في سبيل هذه المدركات العلمية أو وجهت إلى مبنى المدنية الإسلامية - وقد برهنا أن هذه المدنية هي الشكل الوحيد من كمال الاجتماع البشرى الذى يتقرب منه البشر يوماً بعد يوم وأقمنا بالأدلة من تحقیقات عمراني الأمم أنه لا توجد أمة في هذا العصر يجوز اتخاذ نظامها في تربية البنات منولا فنسج عليه ، واستخرجنا من كل هذا المجموع ما يجب أن تكون عليه المرأة في الأمة المتقدمة فتجلت لنا المرأة المسلمة مثال الكمال النسائي ونموذج الرقي الجنسى . بشهادة الطبيعة والتاريخ .

والأصل الذى بنى عليه دراسته للمرأة ، وأقام عليه رأيه فيما يعالجه من مسائلها هو ما يراه من الوظيفة التى تختص بها المرأة في الحياة ، «وهى حفظ النوع البشرى واستدامته بما لا يتأتى للرحل أن يشاركها فيه لأنه يتعلق بشكل التركيب الجسمى الذى لا يمكن التحصل عليه بالتصنع ولا بالتقليد» ، وهذه الوظيفة التى يصفها بانها «وظيفة سامية للغاية» تتمثل في مراحلها الأربعة المتعاقبة، من الحمل والوضع والرضاع والتربية ، وهذه المرحلة الأخيرة هى — كما يقول — من أقدس الوظائف وأدعائها للعناية والاهتمام . إذ «أن فن التربية ليس من الفنون البسيطة التى تتعلم في شهر أو شهرين . بل تقتضى سنين طويلة لأنها تتناول العلوم النفسية ، وكيفية تربية المملكات ومعالجتها بالطرق الحكيمة^(١)» .

وعن هذه الوظيفة الطبيعية الخاصة بالمرأة كان اختلافها عنه عضوياً ومعنوياً . وهذا الاختلاف جعلها — في مجموعها — أقل منه قوة

(١) المرأة المسلمة ص ٣٧ - ٤٤ ، الطبعة الثانية ، سنة ١٩١٢ .

جسمية وأدنى منه كفاية عقلية . فشاركته في أعماله أمر غير طبيعي إذ كان ذلك تجاوزاً لما أهلتها له طبيعتها ، وهو تجاوز تدفع ثمنه فادحاً بما تتعرض له من مشاق هائلة ، مما هو أدنى إلى العبودية لا إلى التحرر؛ كما يؤدي — من ناحية أخرى — إلى انهيار النظام العائلي ، على النحو الذي حدث في فرنسا ، وكان موضع شكوى علماء الاجتماع فيها .

وهذه الوظيفة التي خالفت بينها وبين الرجل تجعل المساواة بينهما أمراً لا حقيقة له، إذ لا توجد المساواة إلا مع تكافؤ القوة . وفوق هذا « فإن الخالق لم يخلق الرجل والمرأة إلا ليكونا شخصاً واحداً ، فالرجل في حد ذاته له نواقص كثيرة لا تكملها إلا المرأة ، وفي المرأة نواقص لا يكملها إلا الرجل، بشرط أن هذه النواقص المتبادلة تتكامل من نفسها عند حدوث الاقتران مباشرة ، وتوحى طبيعة الحال لسكلا الزوجين الواجب الذي عليه للآخر . إذا تقرر هذا ، فكثرة الكلام في تحديد وجه المساواة بين شيئين كل منهما محتاج للآخر ليس له معنى البتة، والبحث عن استقلال كل منهما عن الآخر شيء لا أفهمه ولا أستطيع أن أفهمه مطلقاً ، كيف يحسن بنا أن نعطي الاستقلال لشيئين خلقا ليكونا شيئاً واحداً؟ وكيف نحدد وجه المساواة بينهما وكل واحد منهما محتاج للآخر ، ولا يتم كماله إلا به ؟ غاية ما أفهمه أن مثل الساعين في ذلك كمثل الساعي في إيجاد الاستقلال بين العنصرين المكونين للماء : الأوكسجين والهيدروجين ، فإذا كان من الممكن أن يكون كل من هذين العنصرين مستقلاً عن الآخر مع تكوينهما الماء ، كذلك يمكن أن يكون كل من الرجل والمرأة مستقائين مع تكوينهما الأسرة^(١) » .

(١) المرأة المسلمة ، ص ١١٢ — ١١٣ .

هذا هو الأصل الذى بنى عليه محمد فريد وجدى دراسته للمرأة ، وعن هذا الأصل كان رأيه فى وجوب « أن نعمل كل ما يمكننا لتتقرب المرأة من كمالها ، وتدخل فى حدود وظيفتها ، وأن نعتبر أن كل ما يبعدها عن هذه الوظيفة داء اجتماعى يجب التآلب على ملاحظته ، أو بذل الجهد فى حصره فى محله » ، كما كان رأيه فى حجابها وأسلوب تعليمها . وعلى هذا الأصل أدار فصول كتابه الثلاثة عشرة التى يتألف منها .

وقد ذيل هذه الفصول بخاتمة لخص فيها جملة آرائه ونظرياته التى بسطها فيها فى تسع فقرات .

ويبدو أن محمد فريد وجدى ، حين أخذ فى رسم خطة كتابه : « المرأة المسلمة » ووضع منهجه ، أراد أن يجعله فى جزئين : أحدهما خاص بقضية المرأة فى صميمها ، ويتحدث فى الآخر عما كان يلبس هذه القضية من حديث المدنية الإسلامية ، كما كان صنيعه فى مقالات المؤيد التى رد بها على كتاب تحرير المرأة ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل فيما أوردنا من حديثه عن هذه المقالات ، وهو يشير فى هذا الحديث إلى أن قاسم أمين أتى على مقاله فى المدنية الإسلامية بين أقواس ورد عليه ردا صغيفه من شأن هذه المدنية ، فكأنما كان يريد أن يكون كتابه فى الرد على قاسم أمين فى شأن المرأة متضمنا رده عليه فى شأن المدنية الإسلامية . وقد قال فى الفقرة التى أوردناها قبل من المقدمة ، فى بيان موضوع الكتاب ومنهجه : « . . . وأن نرد على كل شبهة قامت فى سبيل هذه المدركات العلمية ، أو وجهت إلى مبنى المدنية الإسلامية ، وقد برهنا على أن هذه المدنية هى الشكل الوحيد من كمال الاجتماع البشرى الذى يتقرب إليه البشر يوماً بعد يوم » .

كما نجده يقول ، بعد ذلك ، في الفصل الخامس ، في سياق الحديث عن مشاركة النساء للرجال في الأعمال : « ألا يجب علينا بعد هذه الاعتبارات ، أن نكتاتف على عدم تغيير نظام الشريعة الإسلامية التي هي (وسنرى هذا حسيا عمليا في كتاب المدنية ، إن شاء الله) ترجمة نظام الفطرة الإنسانية ، ولسان القوانين الطبيعية »^(١) . فهو إنما يعنى بذلك الجزء الثانى الذى كان عليه أن يصدره بعد هذا الجزء ، كما نرى ذلك في « التنبيه » الذى أثبتته في نهاية الكتاب ، بعد الخاتمة ، في طبعته الأولى ، إذ يقول :

« إننا لم نبدأ من تقسيم مؤلفنا هذا إلى جزئين : جزء رددنا فيه على كل الشبه التي وردت على الحجاب وغيره من تقاليد المرأة المسلمة . وجزء آخر خصصناه لرد كل الاعتراضات التي وجهت ضد المدنية الإسلامية . والسبب الذى دعانا إلى بسط القول في المدنية هو أن بعض الكتاب أساء فهم قولنا إنها كانت نموذج الكمال البشرى فظن أننا نعنى بالكمال البشرى ما يوازى اختراع مدافع المكسيم وبوم وبوم وبنادق دم دم وقنابل الديناميت والليديت ، وغير ذلك من آثار الصناعة والزخرف لذلك رأينا أن نتكلم عن ماهية الكمال البشرى ، وماهية الغرض الذى خلق له الإنسان ، وماهية المدنية الفاضلة التي توصله إلى ذلك الكمال . ثم درسنا أنواع المدينيات المختلفة فلم نجد منها ما يوصل الإنسان إلى سعادته الجثمانية والروحانية إلا الديانة الإسلامية بالحس ، وبشهادة كل معلومات البشر .

على أن هؤلاء الكتاب كانوا يكشفوننا مؤونة الرد عليهم من هذه الوجهة البديهية لو كان اطلعوا على ما كتبناه في ١٨ جزءاً من الحياة ، وما كتبناه في كتابنا : (تطبيق الديانة الإسلامية على نوااميس المدنية)

(١) المرأة المسلمة ، ص ٩٣ ، الطبعة الثانية .

— ٧٩ —

وفي مؤلفنا (الحديقة الفكرية في إثبات الله بالبراهين الطبيعية) ، فإنهم
لو اطلعوا على كل هذا لعلموا أننا قد دافعنا عن حقيقةتنا بالعلم والحس
وأننا لا نجعل ناموس الترقى ، بل إننا أول من بسط الكلام فيه ، وطبقه
على آيات القرآن الشريف »

ولكن يبدو أنه عدل عن إصدار هذا الجزء من الكتاب ، اكتفاء
بما قدم ، أو إرجاء إلى معالجة هذا الموضوع في كتاب آخر ؛ ليكون به
أخص ، كما سنرى بعد .

ومن أجل ذلك حذف هذا « التنبيه » من الطبعة الثانية التي صدرت

سنة ١٩١٢ .

- ٩ -

كان التفكير في المدنية الإسلامية، والمسائل المتعلقة بها، والممهدة للكلام فيها، مثل « ماهية الكمال البشرى، وماهية الغرض الذى خلق له الإنسان، وماهية المدنية الفاضلة التى توصله إلى ذلك الكمال، وأنواع المدنيات المختلفة، »، وهى الموضوعات التى ذكرها فى ذلك « التنبيه » الذى أوردنا نصه فى الفصل السابق، مسيطراً على فكر محمد فريد وجدى، وهو يضع كتابه « المرأة المسلمة » على النحو الذى لاحظناه، ونحن نقرر ما كان يراوده إذ ذلك من تخصيص جزء لهذه الموضوعات يجعله متمماً للكتاب.

ولكن يبدو أنه لم يكد يفرغ من إصداره، وقد ذيلة بذلك « التنبيه » إلى الجزء الثانى، مشيراً إلى تلك الموضوعات التى كان ينوى أن يعالجها فيه، حتى بدا له أن يعدل عن هذا، اتأخذ هذه الموضوعات مكانها فى كتاب ضخيم رأى طموحه العلمى أن « يضمه موجز أبحاثه فى المواضيع الفلسفية التى لها علاقة بالإسلام خصوصاً، وبالدين المطلق عموماً، وكان يقصد به - كما يقول - إلى « إقامة صرح مشيد للدين الإسلامى فى هذا العصر الذى اشتهر بزعة أركان الأديان وهدم صروحها، وتقويض أساطين المعتقدات ونسف قصورها »^(١).

وهكذا أخذ يخطط لهذا المشروع، ويدبر الوسيلة لإخراجه.

وقد رأى - بادية بدء - أن يكون الكتاب فى أربعة أجزاء، يخص الجزء الأول بالكلام عن الإسلام، والثانى بالكلام عن المدنية، ثم يجعل الثالث للكلام على وراء المادة، ويختتم الكتاب بالجزء الخاص بالحديث عن « سيد الوجود محمد صلى الله عليه وسلم ».

(١) من مقدمة كتاب : « الإسلام فى عصر العلم ».

ولا ريب أن المشروع بهذه الصورة وتفصيلاتها التي تمثلت في ذهنه ضخم ضخامة تنوء بها قدرته على تمويله . ولعله - فياقد يبدو لنا - لم يكن بحكم طبيعته وشبابه المتوقد ، يستطيع الصبر على حبس نفسه على هذه الدراسات المتشعبة ، وما تحتاجه من وقت متطاوّل ، ليخرجه مرة واحدة وبذلك رأى أن يخرجه منجما ، في كراسات تصدر شهريا ، يبعث بها إلى المشتركين فيه .

وبدأ بطبع المقدمة وإخراجها على حدة في سنة ١٣٢٠ هـ (١٩٠٢ م) وقد نص فيها على أن الكتاب يتألف من الأجزاء التي ذكرناها . ولكنه لم يلبث بعد ظهور المقدمة ، ومواجهة موضوعات الكتاب ، أن عدل عن هذا التقسيم إلى تقسيم آخر ، فجعل الكتاب من ثلاثة أجزاء لأربعة وسمى الجزء الأول : « مبحث الإنسان » والثاني : « خاتم النبیین » والثالث : « ما وراء المادة » . ثم ألحق بهذه الأجزاء الثلاثة جزءا رابعا لا يعالج فيه موضوعا معيناً وإنما هو مجموعة ملاحق تصدر شهريا ويتضمن كل ملحق الإجابة على ما يوجهه القراء من أسئلة أو استيضاحات أو مناقشة ما يرد عليه من اعتراضات ، أو ما إلى ذلك . وقد قدم لهذا الجزء بقوله :

« .. فإننا وإن كنا آلينا على أنفسنا أن نجعل كتابنا (الإسلام في عصر العلم) سهل العبارة قريب المأخذ ، من جهة القالب العربي ، والأسلوب الكتابي ، ومن جهة البعد عن مصطلحات الفلسفة العويصة ، والهجر لتراكيبها الخرجة ، ما أمكن ، إلا أننا رأينا أن كل ذلك لن يقف بالأذهان الطالبة للاستفادة ، ولن يقعدها شيء عن ابتغاء الزيادة ، فعولنا على أن نجعل للكتاب ملاحقا يصدر ، إن شاء الله تعالى ، معه كل شهر في ست عشرة صحيفة ، يكون موضوعه شرحا لما يغمض من المدرجات الفلسفية التي تأتي في الكتاب وإيضاحا لما يستبهم على القراء في بعض أبحاثه ، في المواضيع الجديدة التي لم يعتد على سماعها أصحاب اللسان العربي . ولكنا لن

نشرح إلا مانسأل عنه . فعلى كل من يود استيضاح مبهم ، أو استيفاء معجم ، أن يكتب لنا سؤاله ويرسله ، قبل انتصاف الشهر ليجد الجواب إن شاء الله ، في الشهر اللاحق .

بهذه الطريقة المبتكرة نرجو أن يكون قارئنا على بينة تامة من كل مايطالعه من كتاباتنا ، أولا فأولا . وإننا هنا نعد قراءنا بأننا لم نزل على عهدنا من مقابلة كل سؤال بصدر رحب ، وذرع واسع ، غير متبرمين بتشدد سائلنا ، ولا مزدرين بمن يعترض علينا . وقصدنا من ذلك أداء خدمة للملة نرجو أن تكون خالصة لوجهه الكريم ، وأن تطهر من كل مايحيطها من همزات الشياطين . والله الموفق والمعين ، وهو حسبنا ونعم الوكيل . وصلى الله على إمام المرسلين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . آمين .

ولما أوردنا هذه المقدمة برمتها ، لالأنها تبين لنا هذا الأسلوب الذى اصطنعه محمد فريد وجدى فى تأليف هذا الكتاب وإخراجه ، ولا لأنها تؤدى لنا صورة نفسية وعقلية له ، وهو يفكر فيه ، فحسب ، بل لدلالاتها — فوق ذلك — على النزعة التعليمية عنده ، وهى نزعة ظهرت فى غير صورة فى حياته ، كما سنرى ذلك فيما بعد ، إن شاء الله .

وهكذا أخذ الكتاب يخرج على الناس فى أجزاء شهرية صغيرة ، يتألف كل جزء منها من ثلاث كراسات من صلب الكتاب ، من كل مبحث من مباحثه كراسة ، إلى جانب كراسة للملحق وقد رقت كل منها بحيث تضم كل واحدة منها إلى نظيرتها حتى يأخذ الكتاب ، بعد تمامه ، صورته الطبيعية الكاملة كما لو كان قد طبع مرة واحدة .

ولا ندري كم من الزمن استغرق محمد فريد وجدى فى إخراج الكتاب بتمامه إذ يبدو أنه لم يلبث أن تعرض لصعوبات الطباعة وما إليها ، وخاصة

إذ كان يكتب في السويس ويطبع في القاهرة ، فلم يكن يصدره بصورة منتظمة كما كان مقدرا . كما نرى ذلك فيما تتضمنه بعض الملاحق من اعتذار عن تأخر صدور هذه المباحث الشهرية عن مواعيدها ، كقوله في الملحق الثامن : « كل ماتكبدته قراؤنا من تأخير مباحثنا الشهرية عنهم كان سببه أهمال القائمين بطبعه . وأما الآن فقد أخذنا الحيلة لإصداره في أوائل كل شهر عربى ، إن شاء الله . وعليه فسيصدر الجزء التاسع في أوائل رمضان ، وسيكون أول سنته الثانية في أول سنة ١٣٢٢ ، إن شاء الله تعالى » أى أنه حتى شهر نوفمبر سنة ١٩٠٣ لم يكن صدر من الكتاب غير ثمانية أقساط ، وأن سنته الثانية لم تكن بدأت حتى شهر مارس سنة ١٩٠٤ .

ومهما يكن تاريخ الانتهاء من طبعة فقد تم أخيراً وظهر في مجلدين يتألفان من ألف وأربعمائة صفحة ، يضمان مباحثه الثلاثة وملاحقها على التصنيف الذى عدل إليه .

ويبدو أنه رأى الكلام عن المدنية يندرج في الكلام عن الإنسان ؛ إذ كان لا يعنى بالمدنية مظاهرها المادية ، ولكنه يعنى الكمال الإنسانى عامة وهو موضوع مبحث الإنسان ، فأكتفى بهذا المبحث عن مبحث المدنية الذى كان فى خطته أولاً .

وقد عالج فى هذا المبحث تاريخ الإنسان العقلى والدينى ، فتكلم عن مرحلة النزوع الدينى قبل ظهور العلم ، ثم ما تلا ذلك من بقطعة العقل ، ونشأة العلم كما تحدث عن الأدوار التى مرت بها الإنسانية منذ عهد اليونان ومعارض لهم من الصراع بينهم وبين الفرس وظهور الفلاسفة اليونانيين منذ فيثاغورس ، ومبلغ معالجتهم لما يسميه بالمسألة اللاهوتية ، إلى غير ذلك من المباحث التى كان هدفه منها ، إلى جانب المعرفة فى ذاتها ، تحليل

الروح المسيطرة على الجيل الحاضر، كما يبدو ذلك في قوله في أحد ملاحق هذا الكتاب:

« إنا وصلنا بالقارىء بواسطة التحليلات الفلسفية التي عملناها في مبحث الإنسان إلى لباب نظريتنا التي وقفنا قلبنّا ومحاولاتنا لبلوغ الغاية من تجليتها ، والإشراف منها على أدوائنا الإجتماعية والذاتية ، واستئزال روح علاجاتنا من قبلها ، إن شاء الله تعالى .

تلك النظرية هي أن لكل جيل روحا عمومية ، تنبعث من أقوى أمة أو من أقوى الأمم في الجيل ، فتحثف بسائر الأمم الأخرى وتساو لها من جهات ضعفها ، حتى تستولى على ارادتها ، وتسلط على اختيارها ، وتديرها في تيار حركتها ، لتجعلها لا تعيش إلا لها ، ولا تتحرك إلا بها ، ولا تستمد الحياة إلا منها ، ولا تسكن ولا تضطرب إلا في حبالها . وقلنا إن الروح السائدة اليوم على آفاق العالم أوربية مختلطة ، أحاطت بالأمم الضعيفة إحاطة السوار بالمعصم ، وجرت على سنة كل الأرواح العمومية السابقة . ثم فسرنا بهذه النظرية سائر ما نحس به من التناقض في أحوالنا والارتباك في شؤوننا ، وقلنا إن الدواء مما نحن فيه لا يمكن تركيبه وتحضيره إلا بعد درس مصدر هذه الروح العمومية درساً علمياً ، والوقوف التام على العوامل التي كونتها وأمدتها ، وعلى جهات الضعف فيها التي واجهتنا منها ، فأحدثت فيها هذه الآثار المحزنة ، ثم يضاف إلى هذا الدرس البحث الدقيق عن حقيقة هذه الروح ، وعن جهات قوتها وضعفها ، وعن عوامل حياتها وموتها ، وعن المسارب التي تسربت منها إلى أفكار البشر وعقائدهم فقلبت شكل الأرض من حال إلى حال آخر .

هذا البحث والدرس سيكون طبعاً بتشريح حالة الأمم قبل حدوثها من جهة الأفكار والعقائد والأحوال السياسية والعلمية والاجتماعية ومن جهة الأخلاق والآداب في أوروبا محل نشوء هذه الروح العمومية

وبيان الرجال الذين ظهرت بهم هذه الروح وتسربت من تعاليمهم تدريجاً تدريجاً . وسيكون هذا البيان ، إن شاء الله ، بسرد حالة الأفكار في العصر الذى وجدوا فيه ، وما أفادوه للناس من الروح الجديدة ، وتوضيح جهات القوة والضعف من تعاليمهم ، ومجرى تلك التعاليم من عقول معاصريهم ثم بيان كيفية انضمام تعاليم السابق إلى اللاحق منهم :

وهكذا حتى نشرف بالقارىء على كيفية تكون تلك الروح الأوربية السائدة اليوم : وعلى حالتها من جميع جهاتها الدينية والفلسفية والعلمية والخلقية : وعلى مراكز قوتها وضعفها : من كل جهة من تلك الجهات : وعلى سر تسلطها على المسلمين من تلك الجهات المذكورة .

ولإذن فقد كان محمد فريد وحدى يتجه ، فى دراساته هذه ، وفى جولاته الفكرية فى مراكز النشاط العقلى والدينى ، إلى الأمة الإسلامية الحاضرة ، وما يسيطر عليها من « روح الجيل العمومية » فهو يحاول — وليس بنا الآن أن نعرف مبلغ توفيقه فى هذه المحاولة — أن يحلل هذه الروح تحليلاً علمياً ويردها إلى أصولها البعيدة والقريبة . ومن ذلك كانت جولته بين الأطوار المختلفة للحياة العلمية وتعرفه لألوانها المختلفة . وينتهى فى حماسة الشباب وتوثبه الذهنى والوجدانى إلى أن « الروح الأوربية سينتهى بها الأمر إلى مقابلة الروح الإسلامية فى أفقها ، وترك السلطان لها » .

هذا هو المبحث الأول من مباحث الإسلام فى عصر العلم .

وأما المبحث الثانى ، وهو مبحث خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ، فإنما يعرض للأصول الإسلامية التى تعتبر من المعجزات العلمية للمصاحح الأكبر ، صلى الله عليه وسلم ، « وبهذه الصفة ستكون السيرة المحمدية على أسلوب جديد حاصلة على الروح المطلوبة منها ، بمعنى أنها لن تكون تاريخية محضة ، بل مرآة تتجلى فيها صورة موجزة من أعمال رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، فى إصلاح العالم وأثرها فيه لليوم ، ومستقبل السلطان العظيم الذى سيكون لها بعد حين » ، كما هو نص عبارته عن هذا المبحث .

وأما المبحث الثالث فهو استمرار لما جعل يعرضه من أبحاث الروحانيين وتجارهم منذ العدد الأول من مجلة الحياة ، مؤمناً أنه بذلك يحقق وجهاً من وجوه التوفيق بين العلم والدين ، وهو الأصل الذى أراد أن يبنى عليه هذا الكتاب .

وبعد فإن كتاب الإسلام فى عصر العلم يمثل وجهاً من وجوه الطموح العلمى المتوثب عند محمد فريد وجدى ، فى شبابه الأول ، وصورة من صور حماسه الدينية المشبوبة المستبصرة فى هذه الفترة من حياته .

وكانه كان يتمثل — وهو مقبل على تأليفه — صورة متكلمى الإسلام الذين اقتفوا أثر المعتزلة الأوائل الذين يصفهم الجاحظ بقوله: «المعتزلة يريدون أن يعرفوا كل شيء ويأبى الله ذلك» ، والذين كانوا يلتمسون المعرفة من كل سبيل . وكانوا يتخذون من معارفهم الواسعة ومن ثقافات عصرهم . ومن دراساتهم المستقصية . أداة يؤيدون بها مذهبهم ، ويدفعون بها أعداء الدين ويجادلون بها خصومهم .

نرى ذلك واضحاً فى مثل قوله ، فى مقدمة هذا الكتاب : «لم يسقط المسلمون إلى ما هم عليه الآن إلا بلويهم عن العلم كشحاً ، وضربهم عن الخوض فى مناحيه صفحاً . ألم تر أن فى كل دور من أدوار العلم كتباً للمسلمين اتخذت أرقى مدركاته سلاحاً للدفاع عن الإسلام وتأييده ، وجعلت أعضل مسأله آلة للتشديد صرجه وتوطيده » .

وقوله فى موضع آخر : « أكبر سبب لتراخى روابط الدين من

قلوب بعض المتعلمين اليوم هو لا شك عدم استخدام القوام عليه العلم لتقرير حقائقه كما كانت هذه عادة آباءنا الأولين وسنتهم في نشر الدين . وقوله بعد أن بسط القول في أثر الشبه العلمية على قلوب المتعلمين ، وعقولهم ، وفي صرفها لهم عن الدين والأخذ بتعاليمه ، وفي انحراف المتكلمين عن الجادة حين يسلكون في الحديث عنه « مسلك القضايا المنطقية والفلسفة العقلية ... في عصر الفلسفة الحسية والبراهين الطبيعية التحليلية » - : « بناء على هذه الاعتبارات كلها رأينا أن نشرع في هذا العمل الشاق اقتداءً بأسلافنا الأولين الذين استخدموا علوم عصرهم للدين »

ولا ريب في أن هذه الفترة الطويلة التي أمضاها محمد فريد وجدى في تأليف هذا الكتاب ، بتقصي مادته ودرسها ودرس المسائل التي كانت تلقى عليه في موضوعاته ، كانت كبيرة الأثر في تكوين شخصيته العلمية وإنضاج ملكاته العقلية والأدبية بما جعل يطوف فيها بميادين المعرفة المختلفة التي كان يقتضيها موضوعه وما أخذ به نفسه فيها من الإحاطة بتاريخ الإنسان العقلي في شتى أطواره ومختلف جهاته .

١٠

في شهر شوال سنة ١٣٢١ ، أو فيما بين أواخر ديسمبر سنة ١٩٠٣ وأوائل يناير سنة ١٩٠٤ بدأت تظهر إلى جانب كراسات « الإسلام في عصر العلم » كراسة جديدة تحمل اسم « صفوة العرفان في تفسير القرآن » وأخذت تظهر شهرياً معها .

وهذا الكتاب كان يتألف ، بعد تمام ظهوره ، من مقدمة طويلة تقع في ١٨٠ صفحة كبيرة ، وقد طبعت على حدة ، ومن التفسير الموضوع على هامش المصحف ، والذي أخذ أخيراً حين أعيد طبعه ، اسم « المصحف المفسر » .

وقد تم ظهور المقدمة أولاً ، وإن كنا لا ندرى متى كان ذلك ، فالتاريخ المثبت في صدرها هو تاريخ البدء في طبعها . إلا أننا نجد المؤلف يورد في صفحة ١٤٠ منها فصلاً من رسالته التي وضعها بالفرنسية « مؤتمر الأديان الذي قيل إنه أنعقد باليابان سنة ١٩٠٦ » ، كما يقول ، فنعلم من ذلك أن إirاده هذا الفصل في هذه المقدمة إنما كان بعد هذا العام ، وأن طبع هذه المقدمة قد استغرق أكثر من ثلاثة أعوام .

ثم نجد في أواخر سنة ١٩٠٧ إعلاناً عن التفسير ، مضمناً الإعلان عن المقدمة ، فذلك فيما نرجح هو تاريخ الانتهاء من هذا الكتاب .

أما المقدمة التي اتخذت صورة كتاب على حدة فقد قدم لها بالكلام عن الأمة العربية في الجاهلية ، ليخلص من ذلك إلى بيان ما أتتج لها من نهضة بسبب القرآن ، الذي هو روحها وحياتها ، كما يقول . « به حيت وتحركت ، وبه أبصرت وأدركت ، وبه تهذبت وتخلقت ، وبه التأممت وأجتمعت ، وبه حاربت وسالمت ، وبه عاهدت وناقضت ، وبه بحثت

وتعالمت ، وبه دونت وألفت ، وبه هدمت وبنت . وكما كان هذا شأن القرآن في حياة الأمة العربية ، فقد كان اغفالها له واعراضها عنه هو سبب ارتكاسها . ثم يقول في شرح هذا الإغفال وما أدى إليه :

« ومن أكبر الأسباب في ذلك أننا لانفهم مراميهِ العالية . . . من جراء العجمة التي طرأت على لغتنا ، لاختلاطنا بالأمم جيلاً بعد جيل ، وقيلاً بعد قبيلاً . . . وأضف إليه تساهل بعض العلماء في قراءته بغير تدبر ، فجرى الناس على ذلك قروناً كثيرة ، لا يحفلون بما غاب عنهم من معانيه ، حتى وصل الأمر إلى ما رى اليوم ، يقرؤه الحافظ من أوله إلى آخره ، وهو لا يفهم منه سطرأ واحداً ، بل قد لا يكلف نفسه فهم شيء منه طول حياته . هذا بالنسبة للحافظ ، أما العامة فأمرهم أشد وأمر . . . »

وبعد أن فرع من تصوير هذه الحالة التي صار إليها المسلمون في العصور المتأخرة من القرآن ، بأسلوب تغلب عليه الروح الخطائية ، قال :

هذه الحاجة الشديدة من الأمة بعثت فينا روح الإقدام لوضع تفسير للقرآن الكريم ، مستمد من كتب التفسير المعتبرة ، لا باللفظ ولكن بالمعنى الحقيقي ، لنتمكن من وضع المعنى في أبسط وأدق القوالب العربية العصرية التي اعتادها الناس وصارت ملكة فيهم . بشرط أننا لم نضع من فكرنا الخاص في المعنى الجوهري للآيات شيئاً . . . أما الذي لنا في هذا الكتاب ، إن شاء الله ، مما نعهده ثمرة اجتهادنا فهو : مقدمة كبيرة فيها تاريخ القرآن الكريم وكيفية نزوله ، وتعدد قراءاته ، وكيفية حفظه وترتيبه واستنساخه ، واستلفات القارئ لمعجزته العلية الكبرى التي تشهد له بالصراحة التامة ، بأنه كتاب الله المنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وإقامة الأدلة الفلسفية على حفظه من التبديل والتحريف ، ونقل شهادات كبار رجال العلم الأجانب على ذلك . . . ويسبق ذلك

فذلكه في فلسفة الأديان ، وما آل الناس إليه في هذا العصر من جهة
التدين .

هذه هي الخطة التي رسمها لنفسه ليقوم بتحقيقها في التفسير ، وفي
مقدمته :

أما المقدمة فقد بدأها بما سماه « فذلكه في فلسفة الأديان . الخ » .
وقد استغرقت هذه الفذلكه معظمها . وغلبت عليه فيها روح الأبحاث
التي كان يعالجها في « الحديقة الفكرية » ، وما كان يعالجه من ذلك في
« الإسلام في عصر العلم » ، مما يتصل بفلسفة الأديان ، ومراحل الإيمان
وخصائص الإسلام ، وما إلى ذلك ، فإذا هو مستغرق فيها مسترسل
معبها ، حتى إذا ما كان عليه أن يتكلم في تاريخ القرآن وكيفية نزوله ،
وقراءاته وما إلى ذلك بما ذكره في منهجه لم يأت بجديد ، ولم يكد يزيد في
هذا عن مثل ما جاء منه في كتاب ككتاب الإتيقان للسيوطي دون أن
يبدو له فيه جهد خاص يستحق التنويه .

وأما التفسير فقد قال في مقدمته :

« أما بعد ، فإنني حوالى سنة ١٣٢٣ حاولت أن أقرأ القرآن قراءة
تدبر وفهم ، كما أمر به موجهه سبحانه وتعالى فأعوزني أن أجد من
التفاسير ما يبلغني أمنيته من أقرب الطرق وأسهلها ، فإن المطولات لا يتسع
لها وقت أمثالي من المشتغلين بفروع كثيرة من العلم ، والمختصرات قصد
بها حلول المسائل الفنية من التفسير . وكان مرادى تفسيراً يعطى الألفاظ
العربية حقها من البيان ، ويعرض للمعنى بعبارة خالية من المسائل الفنية
مع بيان أسباب نزول الآيات ، ليتجلى للقارئ المعنى بكل جلاله .
فأخذت أضع تفسيراً لنفسى ، وشرعت أكتبه على هامش مصحف ،
لاتخذه عمدة لتلاواتي للكلام الكريم . وقبل أن أتمه أدركت أن هذا

العمل طلبه كل نال للقرآن العظيم ، فرأيت أن أتم ذلك التفسير وأطبعه ليعم انتشاره ، ففعلت ، وهو هذا الكتاب الذى أقدمه للقراء اليوم ، راجياً أن أكون بهذا العمل سبباً فى نشر معنى كتاب الله بين ناس لم يكونوا ليلغوه فى حياتهم ، إما لأن أعمالهم لا تمسكهم من الاطلاع على التفاسير وأما لأن مادتهم العلمية لا تسمح لهم بأدراك أغراض المؤلفين السابقين .

كما قال فى مقدمة الطبعة الثالثة التى صدرت سنة ١٩٢٥ ، متحدثاً أيضاً عن بعض ما أراد أن يكون من خصائص تفسيره هذا :

« هنا يجب على أن أنبه إلى أنى أستخلصت هذا التفسير من الآراء المجمع عليها لدى أئمة المفسرين وأقطاب أهل السنة ، فلم أخرج به عن سننهم قيد شعره ، ليوافق مذهباً من المذاهب ، أو يؤيد رأياً من الآراء الفردية ، ولو اضطررتى الكلام فى بعض الآيات على أن أورد رأياً لى ، أو لأحد من غير أهل السنة ، نهيت عليه وعزوته لقائله ، حتى يكون القارىء على بينة من أمره .

وقد راعيت فى تفسيري هذا أن أعنى باللغة عناية لم يعن بها مفسر من السابقين ، فإنهم ، فيما يظهر ، لغزارة مادتهم اللغوية ، لم يلموا من لغة القرآن إلا بالغريب الذى يعلو عن متناول كثير من الخاصة ، ولكننى رأيت أن الكتاب الكريم قد جمع أوجه كلمات اللغة العربية ، وعقائل مفرداتها ، ونحن أحوج مانكون إلى التقوى فيها ، لنحفظ وجودها من عبث العجمة بها ، فشرحنا المفردات شرحاً وافياً ، ودللنا على أصولها ، وأتينا بمشتقاتها ، والتزمنا أن نشرح اللفظ حيث وجدناه ، ولو صادفناه فى كل صفحة من صفحات المصحف .

وإذا كان محمد فريد وجدى لم يلتزم فى المقدمة ، التزاماً دقيقاً ، بما اختطه

ورسمه ، فأفرط في جانب وقصر في جانب آخر . فإنه في التفسير حقق مارسه ، ووقف عند حدود ما التزمه ، فجاء مؤدياً للغرض الذي أراحه له أداء كافياً ، من ناحية العناية بتفسير المعاني تفسيراً يجمع إلى الدقة والقصد القرب واليسر ، ومن ناحية العناية اللغوية بتفسير الألفاظ ، كما تجنب اقحام التفسير في معترك المذاهب ومزجهم الآراء ، فوقف عند التفسير السائد ، دون أن يعرض لرأى خاص إلا أن يضطره الكلام إليه ، فنبه إلى ذلك . وقد وقع ذلك في مواضع قليلة .

من ذلك ما ذكره في تفسير قوله تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة . . . » . الآيات ، وتعليقه عليه بقوله : « ربما يكبر على التالى للقرآن أن يعتقد أن الملائكة يجادلون الله . والحقيقة أن هذا تمثيل لحال الملائكة عندما علموا في عالمهم الروحاني أن كائننا سيطر على الأرض يكون من أمره ما يكون من الفساد ، فحاشت في صدورهم هذه الاعتراضات ، وألهمهم الله الرد عليها ، على نحو ما تراه .

هذا تأويل واجب . لأن الله لا يرى ولا للملأ الأعلى ، بنص القرآن » (١) .

ومن ذلك أيضاً ما علق به على تفسير آية النسخ : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » ، إذ يقول : « نقول إن النسخ ضرورى في الأحكام بسبب تطور الأمم ، وترقيتها أو تدليها . وبما أن الإسلام دين عملى فلا مناص له من مسابقة المجتمع الإنسانى في تقلباته ، حتى يبلغ

به كماله . أليس هذا أولى من بقاء الأحكام على حالة واحدة ، فيضطر
الآخذون بالدين إلى تركها واللجأ إلى تشريع أجنبي ،^(١)

وكذلك ما علق به على تفسير قول الله تعالى : « وإذ قال إبراهيم
رب أرني كيف تحيي الموتى ، قال أو لم تؤمن ، قال بلى ولكن ليطمئن
قلبي ، فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن
جزءاً ، ثم ادعهن يأتينك سعيًا واعلم أن الله عزيز حكيم » .

فقد قال في عقب تفسيره لهذه الآية :

« إن إشارة الكتاب الكريم إلى معجزة إبراهيم هذه تشير إلى أن في
الإنسان قوى إلهية في إمكانها ، بتوفيق الله ، أن تبعث الحياة في الجمادات
وقد دلت الأبحاث في المغناطيس الحيواني في هذا العصر على ما يجعل
هذه المعجزة معقولة عليها » .

* * *

ذلك هو كتاب « صفوة العرفان » بقسميه : المقدمة والتفسير : وإذا
كان قد تم تأليفه وصدر في صورته النهائية في المرحلة التالية ، بعد الانتقال
إلى القاهرة ، فإننا إذ نعهده من وجوه نشاطه في السويس ، نعتبر في ذلك
أصل وضعه ، والجزء الأكبر منه .

على أن التاريخ الذي جعله لمحاولته الأولى قراءة القرآن قراءة تدبر
وفهم ، وهو سنة ١٣٢٣ يثير كثيراً من التساؤل . فهو يتعارض مع تاريخ
البدء في طبع « صفوة العرفان » . وهو سنة ١٣٢١ . وطبيعي أن يكون
ذلك بعد تلك المحاولة الأولى بزمان غير قصير . كما أننا نعلم أن صلته

بالقرآن . بتلاوته والرجوع إليه والاستشهاد به ترجع إلى أوائل نشاطه
الفكرى . وهو في دمياط : وقد ظهر أثر ذلك واضحا في كتابه تطبيق
الديانة الإسلامية على نواميس المدنية . بل لعله ظهر قبل ذلك في كتابه
الفلسفة الحققة في بدائع الأكوان .

فأكبر الظن أن هذا التاريخ الذى ذكره قد تعرض لتحريف الطبع
وأن صوابه سنة ١٣١٣ هـ هى السنة التى أخرج فيها كتابه الأول .

١١

وبعد ، فهذه صورة من حياة محمد فريد وجدى ، وطائفة من وجوه نشاطه ، فى هذه المرحلة من حياته . وهى المرحلة التى بدأت بتركه القاهرة إلى دمياط مع أبيه وأسرته ، فى نحو سنة ١٨٩٤ ، وانتهت بتركه السويس وانتقاله إلى القاهرة واستقراره فيها ، فى شهر إبريل ، سنة ١٩٠٥ (كما سنرى ذلك بعد قليل) ، أى منذ كان فى السادسة عشرة من عمره إلى أن فاهز السابعة والعشرين .

والصورة التى رأيناها تمثله لنا طاقة موفورة من النشاط الدائب الذى لا يكاد يفتر ، وتشخصه أمامنا شابا دافق الحيوية ، مرهف القوى العصبية ، شديد التطلع إلى ألوان المعرفة ، مقبلا على القراءة التى تتيحها له فى شغف ونهم ، يود لو استطاع أن يستوعب كل كتاب فى مكتبه أليه ، وكل ما يظهر فى عالم الحياة الأدبية من مؤلفات ومجلات ، عربيا أو غير عربى ، وقد استغرقه ذلك ، فأصبح متعته التى لا يكاد يهفو إلى غيرها من المتع التى يثيرها الشباب ، ويحفزه إليها السرور وخاء الحياة . وكونت له هذه القراءات ، وما كانت تنير فى نفسه من تأمل وتبعثه فيها من خواطر ، عالمه الخاص الذى اشتد به تعلقه . ويأبى هذا العالم الباطنى إلا أن ينعكس فى صورة خارجية . فإذا هو يتخذ صورة الكتابة والتأليف . وإذا بذلك الشاب - ولم يكد يبلغ السابعة عشرة من عمره - يخرج كتاب الفلسفة الحققة فى بدائع الأكوان . ويأخذه بظهوره شيء من الزهو . ولا يكاد يفرغ منه ويستمتع إلى أصدائه تملأ أذنيه وتغمر جوانحه ، حتى يكب على غيره ، يكتب بالفرنسية : ثم يحوله إلى العربية : وتستهويه الكتابة وتملك عليه أمره ، وقد طاعت له أدواتها ودان له زمامها . إنها عالمه الباطنى الذى آثره وأحبه مائلا بين يديه .

ويتدفق ذلك العالم بالآفكار والآراء والخواطر ، فلا يجد لقاء ذلك بدا من أن يخرج مجلة يصدرها شهريا، وينفرد -أو يكاد- بكتابة فصولها ثم لا يكاد يكف في خلال ذلك عن كتابة المقالات يبعث بها إلى جريدة المؤيد وجريدة اللواء : يعبر فيها عن رأيه وما تتردد به جوانب نفسه ، في بعض ما يعرض من أمور الدين أو مشاكل المجتمع ؛ ويستمر في إصدار الكتب وتحرير المقالات لا يكاد يفرغ من فصل حتى يأخذ في غيره ، حتى بلغت جملة الكتب التي أصدرها أو كان يصدرها في هذه المرحلة ستة كتب . وحتى بلغت المقالات التي كتبها الجريدة اللواء وحدها نحواً من عشرين مقالا .

هذه المرحلة التي أنفقها محمد فريد وجدى على هذه الصورة ، وهو في صدر شبابه : في مدينتين صغيرتين كدمياط والسويس ، وفي حياة بسيطة بعيدة عن تعقيدات المدن الكبرى كان لها - ولا ريب - أثرها الكبير في تكوين شخصيته وتوجيه حياته ؛ بما أتاحت له من التوفر على القراءة والكتابة والتأمل ، وبما صرفته عن كثير من التفاهات والصغائر ، كما كانت كبيرة الأثر فيما أشرنا إليه من قبل من إحاطته بعالم عقلي يموج بالآفكار والمثل ، واستغراقه في هذا العالم ، حتى أصبح آثر لديه من كل اعتبار وحتى كاد يكون عالمه الوحيد ، يمسى فيه ويصبح معه .

ولكن هذه الحياة المقصورة إلى حد غير قليل ، وهذه الإقامة البعيدة عن القاهرة مركز النشاط الفكري ومجلى وجوهه المختلفة ؛ لم تكن تتفق مع ما كانت توجهه إليه مطامحه من آفاق وما كان يقتضيه عمله في التأليف ، وقد كاد يصبح له صناعة ، من الاتصال بأجهزة الطباعة ، ومكانها القاهرة . وقد عرضه مقامه بعيداً عنها لكثير من المتاعب ووجوه النقص في طبع كتبه . وقد رأينا كيف كان كتابه الإسلام في عصر العلم يعاني من التعثر

وأغلاط الطبع ما كان كثير الشكوى منه والاعتذار عنه . كما كان هذا المقام النائي المقصور مما يحول بينه وبين ما كان يرجوه ويتطلع إليه دائماً من استئناف إصدار الحياة .

كان من الطبيعي ، اذن ، إزاء ذلك كله ، أن تراوده فكرة الإقامة في القاهرة ، يجمع فيها بين أطراف نشاطه ، ويستطيع أن يمد مجال عمله ويوسع دائرة خدمته لوطنه وأمه . القاهرة التي عاش فيها نحو العامين ، في إبان التوثب العقلي والتطلع الوجداني ، طالباً بمدرسة التوفيقية، ورائداً لمواطن الثقافة والفكر فيها ، والتي كان ما يزال يختلف إليها بين الحين والحين ، في شأن مجلة الحياة التي كان يصدرها ، ثم في شأن كتبه التي كانت تطبع في مطابعها ، والتي كان يقيم فيها - أثناء العام الدراسي - أخوه أحمد وجدي الطالب بمدرسة الحقوق ، وبعض أصدقائه الروحيين الذين كان يكاتبهم ويشاركونهم أفكارهم ومبادئهم في الاجتماع والسياسة كرفيق العظم ومصطفى كامل .

فما أجدر القاهرة - مجال الحركة الفكرية ، كما يقول في صفتها - أن تفتح أمامه من ميادين النشاط ما يتطلع إليه ولا يكاد يتحقق له ، وما أجدرها أن تهيب له من الأسباب ما يعينه على استئناف إصدار « الحياة » . وكان ذلك أمراً ما زال يراوده ويداعب خياله . إلى جانب اتمام كتبه التي كانت ماتزال تتعثر بين السويس والقاهرة .

وربما كانت بعض الضرورات العملية هي التي كانت تمسكه بالسويس وتحول بينه وبين الإقامة في القاهرة ، رغم الدواعي الكثيرة التي كانت تدعوه إليها ، وربما كان إلفه للمجتمعات الصغيرة والحياة الهادئة هو الذي جعله يأنس للإقامة في هذه المدينة الصغيرة ، ويشفق من الإقامة في القاهرة بمجتمعاتها المعقدة ، وحياتها الصاخبة ، رغم ما تتيحه من إرضاء مطامحه ، وتحقيق خططه ، وتيسير أموره .

ولا ريب أن هذه العوامل المختلفة والدواعى المتعارضة المتدافعة ظلت تضطرب فى نفسه وتضطرع فى وجدانه ، حتى لم يجد - آخر الأمر - بدأ من ازماع الانتقال إلى القاهرة ، وخاصة بعد أن لم يعد شىء من الضرورات العائلية يمسكه فى السويس ، منذ أصبح - بعد وفاة والده - رأس أسرته التى انفصم بوفاته الرباط الذى كان يربطها بهذه المدينة ، وقد آل إليها ميراث أبيه ، فهو يستطيع أن يبدأ فى القاهرة حياة جديدة مستقلة ، مع والدته وأخوته ، وأن يمضى بها فى السبيل التى اختطها لنفسه على أحسن وجه ، فيما يرجو .

وهكذا انتهت هذه المرحلة من حياة محمد فريد وجدى ، لبدأ مرحلة جديدة فى القاهرة ، أبعد مدى وأكثر استقراراً .

١٢

في شهر ابريل سنة ١٩٠٥ كان انتقال محمد فريد وجدى من السويس إلى القاهرة ، كما يؤخذ بما ذكره في سياق مقالاته التي كتبها بعد وفاة مصطفى كامل ، رئيس الحزب الوطنى (في ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨) ، وقص فيها تاريخ علاقته به ، ووجوه هذه العلاقة^(١).

وقد بدأت هذه العلاقة بين الرجلين — وكانا متقاربين السن ، إذ كان مصطفى كامل يكبر محمد فريد وجدى بأربع سنوات — على البعد ، حين كان فريد وجدى في السويس يصدر مجلته «الحياة» ، وكان مصطفى كامل يتبها في القاهرة لإصدار جريدته « اللواء » ، سنة ١٨٩٩ ، فكتب إلى صاحب « الحياة » يفضى إليه بما عزم عليه من اصدار هذه الجريدة ، ويدعوه إلى امدادها ببعض المباحث الدينية والاجتماعية ، فبادر إلى تلبية هذه الدعوة التي ملأت قلبه غبطة ، وأخذ يوالى الكتابة في « اللواء » حتى بلغت مقالاته فيها نحواً من عشرين مقالة .

كان ذلك هو مبدأ العلاقة بين الرجلين ، ثم فترت هذه العلاقة ، بل توقفت ، بسبب يبدو غريباً . ولعل ذكره كما حكاه محمد فريد وجدى يؤدي إلينا صورة من بعض جوانب شخصيته ، وبعض ما كان يسيطر على مشاعره ، في هذه المرحلة خاصة . قال :

« كان لذلك العهد ، لا يزال وهم لعب « محرر بجريدة » يؤثر على إحساسى تأثيراً غريباً . فاتفق أنى ألقت كتاباً في ذلك الوقت سميته :

(١) هي تسع مقالات نشرها في الدستور ، بعنوان « شئ » عن فقيدنا المحبوب « ابتداء

من ١٤ فبراير سنة ١٩٠٨ .

(الحديقة الفكرية فى اثبات الله بالبراهين الطبيعية) ، فأهديته نسخة منه فقرظها ... إلا أنه نسى فى ذلك الذى كنت أفر منه ، وهو لقب (محرر بجريدة اللواء) ، فألصقه بى فى ذلك التقريظ بالخط العريض ، مما لا يدع لقارىء مجالا للشك فى أنى أحد موظفى اللواء ، أنقذ منه أجراً على مقالاتى . فألم بى من الحزن والاستياء ما حملنى على الاحتيال لتبرئته نفسى بما لا يؤثر على سمعته بسوء ، فكتبت إلى المؤيد جملة معناها أن كثيراً من الناس يرسلون إلى مراسلاتهم بعنوان : محرر بجريدة اللواء . الأمر الذى يؤخر وصول المراسلات ، فأرجو من الآن فصاعداً أن يرسلوا مراسلاتهم لى مباشرة . ثم ذكرت فى هذه الفرصة أن غاية مالى فى جريدة اللواء أن سعادة صاحبها كلبنى بكتابه فصول فى الاجتماعيات ، فلبست طلبه . وقد حدث لى الآن ما يمنعنى عن ذلك .

وبالرغم مما تبادلته الرجلان على أثر ذلك من رسائل العتاب والاعتذار ووعود فريد وجدى بالعودة إلى الكتابة فى اللواء ، « بعد أن يعلم الناس استقلاله فى كل ما يكتب ويقول » كما يحكى هو عن نفسه ، معقباً على ذلك بقوله : « وهى نزعلة لازمتنى طفلاً ، ونمت معى شاباً ، ولم تزدها السنون الا رسوخاً فى طبيعتى » وبالرغم من ذلك فقد انقطع محمد فريد وجدى عن الكتابة فى « اللواء » ، وقترت صلة ما بين الرجلين ، حتى سنة ١٩٠٦ .

وكان محمد فريد وجدى قد انتقل الى القاهرة واتخذها مقاماله ، كما قلنا . وكانت الصحف أخذت تردد إشاعة عن مؤتمر للأديان ينعقد فى اليابان ، وجعلت تتحدث عن ضرورة اشتراك مصر فى هذا المؤتمر ، بإيفاد بعض المفكرين الذى يمثلون الدين الإسلامى ، وإذا باللواء يخرج على الناس ذات يوم قائلاً : إن الذى يصلح من أهل مصر لتمثيل الدين الإسلامى فى هذا المؤتمر ، وهو حاصل على الكفاءة العلمية فى الدين واللغة

هو أحد رجلين : محمود بك سالم ومحمد فريد وجدى . فكان ذلك بدء انتهاء تلك القطيعة أو ذلك الفتور .

ولا بأس فى أن نورد هنا ما كتبه محمد فريد وجدى فى المقال الثانى من مقالاته تلك ، بعد إirاده ذلك الذى قالته اللواء فى الترشيح لمؤتمر الأديان ، وتعبيره عن تأثره الشديد به ، قائلاً إذ ذاك لنفسه : يا سبحان الله ! ما كنه هذا الفؤاد الذى يحمله هذا الشاب ، يعنى مصطفى كامل . قال : « فأصررت على وجوب تجديد عهدى به ، وتقت إلى رؤيته وصحبته وأن كنت أضن بنفسى عن أكبر كبير سواه . ولم أر أجمل وسيلة أعيد بها تلك الصلة من كتابة أسطر معدودة ، شكراً على هذا الانعطاف منه . وشفعت ذلك برأى أبديته فى الموضوع . فنشر الكتاب فى اليوم التالى ، وعلق عليه تعليقاً هو غاية فى الظرف ... وقد كانت تلك فرصة من أجمل الفرص للذهاب اليه ومقابلته . الا أنى ، لما أشر به قلبى من العزة الفطرية ، لم أشأ أن أكون أنا البادى بالذهاب اليه ، بدون دعوة على الأقل . وقلت : إن كان ما أتخيله فى تلك الروح صادقاً لم يترفع عن طلب مقابلتى فى بيتى أو فى بيته ، كما هى العادة بين روجين متناسبين مطامح وأخلاقاً . فما كانت الا ساعات معدودة ، ريثما علم أنى بمصر ، حتى كتب إلى هذا الخطاب ، وهو من الخطابات التى وجدت صورها ، وهو هذا :

أخى الفاضل ، حفظه الله

تحية وسلاماً وشوقاً وإحتراماً ، وبعد ، فإن لى شوقاً شديداً لمقابلتكم . وفى عزمى السفر إلى أوروبا يوم الثلاثاء المقبل ، فمل يمكنكم التفضل على بالمقابلة قبل ذلك اليوم ؟ وهل ترضون تشريف هذه الأمة ودينها الكريم بالسفر إلى اليابان لحضور المؤتمر ، وتأدية الخدمة السامية التى تطلبها المسلمون والإسلام .

أنتظر جوابكم ، وأرجوكم قبول الاحترام وفائق السلام .

وهكذا راجع محمد فريد وجدى صلته بمصطفى كامل ، وإن كان يشوبها غير قليل من آثار طبيعته المتحفظة ، ومزاجه الاعتزالي ، وشدة اعتزازه بنفسه . فبقيت زمنا مقصورة على الاتصال الروحي ، واقفة عند حدود تبادل الرسائل ، ولم يلقه ، على شدة رغبته في لقائه ، إلا في السنة التالية .

وانصرف إلى كتابة بحث عن الإسلام يقدمه إلى مؤتمر الأديان في اليابان . أما السفر فيبدوا أنهم لم يهش له ، وإنما وقف منه موقف المتحفظ كما نرى ذلك في جوابه على رسالة مصطفى كامل إليه ، إذ يقول إنه لا يتأخر عن السفر إلى بلاد اليابان لو كانت صحته تسمح بذلك .

ولم يكن الأمر فيما نحسب أمر صحة وسقم ، وإنما هي تلك الطبيعة المتحفظة المقصورة ، وتلك الانعزالية التي لا تكاد ترى غير العالم العقلي . فالأمر الذي استهواه من ذلك المؤتمر ليس هو السفر ، بل كونه أتاح له الفرصة لينصرف إلى نفسه ، ويعكف على كتابه بحث جديد عن الإسلام ، جدير بأن يقرأ بين المؤتمرين المجتمعين - كما كان يقال - من مشارق الأرض ومغاربها ، ولعله يكون سببا في أن تصطنع الأمة اليابانية الإسلام . وكان فيما رددته بعض الصحف في حديثها عن ذلك المؤتمر ، وتناقضه المجالس ، أنها تريد أن تصطنع لنفسها ديناً تدين به^(١) .

(١) ومضت الإشاعة في سبيلها ، فزعمت أن المؤتمر قد انعقد فعلا في موعده ، وأن فلاسفة اليابانيين الذي حضروه بدأ منهم ميل إلى اختيار الديانة الإسلامية . وقد كتب محمد فريد وجدى في مجلة الحياة (الجزء الأول من المجلد الثالث ، ص ٣٩) معاقبا على ذلك بما يدل على مبلغ ما كان لهذا المؤتمر (المزعوم) من خطر في الأذهان إذ ذاك . قال :
ولو صرح هذا النبأ ارتفع شأن الإسلام في لحظة واحدة من حال إلى حال آخر ، ليس من حيث المجد النبوي فقط ، بل من حيث الإصلاح الديني أيضا . فإن اليابانيين أمة حجة لا ترضخ للاشكال الجامدة التي أحل المسلمون أنفسهم فيها بأيديهم ولا بد . أن تسلك في دينها الذي انتخبته لها . مسلك الأحياء مع عقائدهم ، فيترجع بالدين إلى ما كان عليه في زمن الصدر الأول =

وقد عرض له الحديث عن هذا الموضوع في سياق الفصل الذي كتبه في دائمة معارفه عن الرؤيا ، وأشرنا اليه في موضع آخر ، فقد حكي عن نفسه أنه رأى ، فيما يرى النائم ، كأنه في حضرة ميكاد واليابان ، وأنه موضوع احترامه وتبجيله ، إلى آخر ما قصه من ذلك . ثم قال :

« مضى على هذه الرؤيا نحو من خمس سنين ، فأخذت الجرائد المصرية والسورية والتركية تشيع أن في العزم إقامة مؤتمر في بلاد اليابان ، للبحث في الأديان ، وأكثر المرحوم مصطفى كامل صاحب جريدة اللواء من الاهتمام به ، ورشح رجالا لحضور ذلك المؤتمر ، بالنيابة عن علماء مصر ، وذكرني وصديقي المفاضل محمود بك سالم ، القاضي بالمحاكم المختلطة كان ، وكاتبني في هذا الشأن . ولكني لم أجد في نفسي انبساطا إلى تلك الرحلة الدينية ، فاعتذرت له ، ووعدته بكتابه رسالة باللغة الفرنسية في الدين الاسلامي . ووفيت بوعدى ، وأرسلت تلك الرسالة إلى رئاسة ذلك المؤتمر . ثم قمت بترجمة تلك الرسالة في كتيب صغير ، سميت : (سفير الاسلام) . فقال هذا الكتيب من الانتشار مبلغا كبيرا . »

وهذا البحث الذي كتبه ليقدم إلى مؤتمر الأديان باليابان يقوم على عمومية الاسلام ، كما وضحه في قوله عنه ، في مقدمته :

■ من المسلمين ، ولا يمر عليهم عشرون من السنين حتى ترى فيهم أئمة يهدون بأمر الله بلغة القرآن وهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فانهم رجال عمل ودأب لا يهابون المصاعب ولا يرهبون المتاعب متى كان وراءها لهم رقى ظاهر ومجد باهر . وقد اتفقتوا المذنبه أوروبا سنين معدودة ، فاصبحوا في مقدمه أهلها ، وقد شهد لهم الاوربيون بانهم سبقوهم في كثير من فروعها . وليس هذا كل ما في المسألة فان اليابانيين أصبحوا طلبة الحياة في جميع آسيا الشرقية ، وفيها نحو ستمائة مليون من النسمات كلها مستعدة للتتحرك بحركة اليابان والاقتناء باعمالها ومراريتها ، فلا تبقى سنين معدودة حتى تصبح تلك الاصقاع كلها إسلامية محضة . ويكون هذا العصر عصر أكبر معجزة من معجزات الإسلام الخالدة ، وآية من آيات الحق في أخيه بيد الحق الذي أهله أهله واضاعوه .

« لم أجعل غرضي من مقالى هذا الا أمراً واحداً ، اذا فهم حق الفهم كان أشد في جذب الناس الى الدين من كل البراهين المفحمة ، والحجج الملزمة . ذلك الأمر هو أن الإسلام ليس بدين جديد جاء لأمة معينة ، وإنما هو الدين الذى أوحاه الله الى جميع رسله ، فخرفه أتباعهم ، ثم انزل الى محمد ، صلى الله عليه وسلم ، أخيراً ، لإحداث إصلاح دينى عام ، لسائر الأمم ، شرقياً وغربياً ، حين تعارف الأمم واتصالها ، ليكون دينها العام الذى عليه يتم اتحادها ، ويصفو لديه تعارفها . ولذلك جعل قاعدته الإيمان بسائر رسل الله ، من نعرف اسماءهم ومن لانعرف اسماءهم ، وبجميع كتب الله ، بأى لغة كانت ، كما سيمر بك تفصيلاً .

فهم هذا الأمر يفيد المسلم وغير المسلم :

فيفيد المسلم لأنه يريه أنه تابع لالدين من ضمن الأديان المنعزلة المتعادية ، ولكن للدين الاصلى الجامع لسائر الأديان ، فهو بهذا يجد في نفسه قيمة لم يحس بها من قبل ، لأنه يرى نفسه رجلاً عاملاً لا خاصاً ، ومتبعاً ديناً هو في نفسه دين الكل ، وجامع أرواح الكل ، في أكمل شكل وأجل حال . فمن كان كذلك فلا يتحامل على الأديان ، لأنه أمر بأن يؤمن بها كلها ، وأن يكون منها بالمرکز الأوسط ، مكتفياً بما في كتابه من خلاصاتها . ومن أدرك من الناس مقامه في هذا المركز الأوسط العام ، وشعر أنه في مجتمع أميال الأمم ، وفي نقطة تلاقي مراميها واتحاد اقتنيتها ، في يوم من الأيام ، فلا يهون على نفسه أن يميل عنه الى نقطة متطرفة ، ولو سيق اليها بقوة القاهرة .

أما فائدة غير المسلم من فهم هذا الأمر الجليل ، فهو لأنه يسهل عليه المخرج من ورطته ، والخلاص من شكوكه وشبهه ، فإنه مامن عاقل من عقلاء الملل الأخرى الا يشعر بأن أيدي الخرافات قد امتدت الى

أصول عقائده ، فيجد نفسه مضطراً الى التأقف منها ، راجياً اصلاحها على أى حال كان . فلو علم أن الاسلام إنما جاء بالاصلاح العام لسائر اديان البشرية ، لأنه دين منعزل مثل سائرهما ، لكان التفاته اليه يشبه الأمر الاضطرارى ، لأنه كلما ألمه أمر مما يكرهه في دينه ، وظنه محرفاً عن أصله ، نزح الى ذلك الدين الاسلامى مضطراً مختاراً ، ولا يزال يدفع ويندفع حتى يقع في دائرته .

لهذا جعلنا غرضنا من هذه الرسالة هذا الأمر الخطير ، في أظهر أشكاله ، تاركين الدلالة على فضائل الإسلام لغيرنا ممن في المؤتمر ، خوفاً من الا يلتفت لهذه النقطة أحد منهم .

ذلك هو الأصل الذى بنى عليه رسالته الى ذلك المؤتمر (المزعوم) كما شرحه في هذه المقدمة التى قدمها بها . وكأنما رأى أن ذلك خير ما يتقدم به الى مؤتمر كهذا المؤتمر ، يمثل الأديان المختلفة ، فأراد أن يبين مكان الإسلام منها ، وموضعه بينها ، والصلة الوثيقة التى تصله بها .

وذلك الأصل هو الذى عاد اليه بعد ذلك ، في سنة ١٩٣٢ ، فشرحه وسطه في دراسته التى جعل عنوانها : « الاسلام دين عام خالد » ، كما سنعرض لذلك بعد إن شاء الله .

١٣

لم تكن هذه الرسالة التي كتبها محمد فريد وجدى لتقدم إلى ذلك المؤتمر ، والتي ترجمت إلى العربية ووسمت باسم « سفير الإسلام » أول صورة من صور نشاطه بعد انتقاله إلى القاهرة ، فقد اتخذ هذا النشاط منذ استقر فيها صورة الكتابة في الصحف . وهو يشير ، في سياق إحدى مقالاته في الدستور ، إلى عدة مقالات كتبها سنة ١٩٠٥ في نقص العلوم الأزهرية ، ويحكى فيها قصة لقاء بينه وبين جمهور من طلبة الأزهر ، بعد نشر هذه المقالات (١)

ولكن ربما كانت هذه الرسالة أول مؤلف علمي تام قام بوضعه في هذه المرحلة من حياته . ولم يكن في تقديره من قبل ، وإنما هي الظروف التي سافته نحوه وأتاحته له

أما الذي كان يقدره ويديره منذ أزمع الانتقال إلى القاهرة فهو أن يستأنف إصدار مجلة الحياة التي كانت أعز بواكير نشاطه الفكري عنده ، والتي توقفت عن الصدور منذ أواخر سنة ١٩٠٠ . فأكبر الظن أنه لم يكد يستقر في القاهرة حتى أخذ يتهيأ ويعد العدة لإصدارها ، في صورة جديدة متطورة .

ولم يتح لنا أن نعرف على وجه اليقين في أى شهر من شهور سنة ١٩٠٦

(١) جريدة الدستور ، عدد ٢٠ مايو سنة ١٩٠٨ .

بدأ صدورها . ولكن لا بد أن تكون ، على أى حال قد صدرت فى النصف الثانى من ذلك العام^(١) .

وقد اتخذت ، هذه المرة ، شعارا تحمله فى صدرها ، وهى أنها «مجلة اسلامية عمرانية فلسفية» ، وإن كانت لا تتناول دراسات العمران — ويعنى به علم الاجتماع — ولا دراسات الفلسفة فى صورة مستقلة ، وإنما تعنى هذه الصفة أنها تعالج المسائل الإسلامية معالجة عمرانية وفلسفية . فهى مجلة اسلامية فى موضوعها ، عمرانية وفلسفية فى منهجها ، كما يمكن أن نرى ذلك فى أبوابها ، وهى خمسة :

الباب الأول عنوانه : الاسلام ، ماضيه وحاضره . والثانى عنوانه : حلول الشبه الأوربية . أما الثالث فموضوعه دفع الشبه عن الإسلام ؛ وأما الرابع فقد جعله لبحاث « ما وراء المادة » ، وعنوان الخامس : « الوجديات » .

وإذا كان الباب الثانى ، وهو حلول الشبه الأوربية ، معقوداً للشبه التى توجه إلى الدين عامة ، فالواقع أن ما يوجه إليه من شبه هو فى الوقت نفسه موجه إلى الإسلام خاصة . وهذا الباب والباب الثالث هما فى حقيقة الأمر استمرار لما بدأه فى مجلة الحياة فى سنتها الأولى ، اذ جعل من أبوابها بابا عنوانه : الشبهات العصرية على الأدیان ، ونفيها عن الاسلام ، وقد جعله فى مناقشة ما كتبه برتيلو ، العالم الكيمائى ، عن

(١) المجلد الثالث الذى بين ايدينا من مجلة الحياة سقطت اغلفة اجزائه التى تحمل تواريخ صدورها . ولم يبق الا تاريخ الطبع على الجزء الأول ، وهو سنة ١٣٢٤ هـ ، وتبدأ فى ٢٥ من شهر فبراير سنة ١٩٠٦ ، وليس لنا — حتى نقف على تاريخ صدور أحد هذه الاجزاء — الآن تليجاً إلى الاستنتاج والافتراض ، كأن تجيء الاشارة فى الجزء الأول إلى أن مؤرخ الأدیان انقعد فى أول يونية ، فنستنتج من هذا أن صدور هذا الجزء كان بعد هذا التاريخ .

الاديان ، نقدا لها وانتقاضا عليها ، فجعل هذا الباب ، فى السنة الثالثة ،
بايين .

وقد تحدث فى المقدمة التى كتبها للحياة فى عهدنا الجديد ، وصدر بها
العدد الأول ، عن هذه الأبواب بابا بابا ، بما يدلنا على ما كان يعنى بكل
عنوان من عنواناتها ، وما كان يدور بخلفه عن الموضوعات التى
يتناولها فيها :

فقال عن الباب الأول ، وهو باب « الإسلام » ، ماضيه وحاضره ، ،
سندرس فيه الإسلام فى شكله الخاص الذى دان به رسول الله ، صلى الله
عليه وسلم ، وأصحابه والتابعون ، قبل دخول الفلسفة اليونانية عند العرب
وقبل افتتاح الناس بالتعاليم ، وابتكار المسائل التى لم تحصل . وتكاف
الإجابة عنها . أى ذلك الشكل الذى كان مصاحباً ليقظة المسلمين وحياتهم
وسنقارنه بالشكل الذى دعى اسلاماً بعد دخول الفلسفة اليونانية ، وخلق
مسائل العلم القديم بالأمور الدينية ، فصار الإسلام — بعد أن كان يقف
المسترشد على جملته فى ساعة من زمان ، ثم يمضى لعمله وكده — يعوز
درسه السنين الطوال ، مع الانقطاع عن سائر الأعمال . وربما خرج
الطالب ، بعد صرف العمر فى دراسته ، لا يدرى أن يفصح عن ماهية
الدين بعبارة جامعة مؤثرة .

نريد فى هذا الفصل أن نفهم معنى الإسلام ، ونعرف مراميه ، التى
رمى إليها ، فى الدين والعقل والعواطف والأخلاق ، ونستشرف تلك
الروح التى انبثت فى افئدة الناس ، فاحيت مواهبهم ، وأيقظت عواطفهم
وجمعت كلمتهم ، وسمت بنفوسهم على النفوس ، وعلت بهمهمهم على الهمهم .
ثم نريد أن نعرف ذلك الفرق بين هذا الإسلام الخالص وبين الإسلام
الشائع الآن ، الذى يدرس السنين الطوال ، فلا يكون له أثر فى تهذيب

أخلاق متبعيه وتعديل عوجهم ، بل قد انعكس بهم الحال إلى ضده ؛ حتى صرت لا ترى القطيعة بضروبها ، والدعارة بصنوفها ، والاختلال بكافة أشكاله ، إلا فيمن وقف نفسه على دراسته . نريد أن نعرف ما الفرق بين الإسلاميين ، لتدرك سبب تخالف النتيجة ، ثم نسعى بعد ذلك في نشر الاسلام الخالص واشهاره ، مؤيداً بالآيات والأحاديث الصحيحة وأقوال السلف الصالح .

وبعد أن انتهى من الكلام عن هذا الباب . ومنهج المجلة فيه ، وأهدافها منه والآمال التي تعقد لها عليه انتقل إلى الكلام عن الباب الذي يليه ؛ فقال :

« الباب الثاني عنوانه : (حلول الشبه الأوربية) التي صبها العلم على أصول العقائد عامة ؛ لنرى المتفرنجين منا أن زعمهم بأن زمان الدين قد فات لا ينطبق على الاسلام الخالص الذي عمل به نحواً من مائتي سنة ، بل ينطبق على ما حدث بعد ذلك حين دخلت العلوم المنطقية والتفريعات التصورية إلى أصوله ، كما سيمر بك تفصيلاً .

وإننا لأجل أن نبلغ غاية إتقان هذا البحث سنترجم الكتاب المسمى (عدم الدين في المستقبل) الذي قصد مؤلفه الفيلسوف (جيو) الفرنسي إثبات أن الدين قد فات زمانه وأن العلم قد حل محله وجاء على أصول الأديان بكل ما يسمح به العلم العصري من الشبه والإشكالات . وسنعقب على كل جملة بالردود المناسبة لها التي تبرهن للعالم القاري أن الاسلام الخالص (لا الذي هو موجود الآن) أعلى من أن تتناوله تلك الشبه ، ليؤوب إلينا أولئك الآخذون بالجديد . فما كل قديم يترك ، ولا كل جديد يؤخذ » .

فقد جعل معتمده في إيراد الشبه الأوربية على الدين كتاب جيو ؛ كما كان معتمده في مثل هذا الباب في السنة الأولى كتاب برتيلو .

أما الباب الثالث الخاص بالشبه الموجهة إلى الاسلام خاصة فقد قال فيه : « سنأتى فيه على كل شبهة أوردتها المشككون على الاسلام وبنى الاسلام. وسنرد عليها رداً نهائياً بأقصى ما يسمع به العلم والفلسفة » . وأكبر الظن أنه يعنى بالمشككين فى الاسلام المبشرين وبعض المستشرقين الذين كانوا يتخذون أحياناً من بعض الروايات الضعيفة أو الأقاويل المدخولة مطاعن يحاولون بها إثارة الشك وتوهين العقيدة، كما صنعوا فى مسألة « الغرائق » . وهى من المسائل التى عاجلتها الحياة فى هذا الباب .

أما باب ماوراء المادة ؛ وهو الباب الرابع فقد قال عنه : سنكتب فيه كل ما يجد من مباحث العلماء فى أوربا ، من جهة اثبات الروح والخلود ، بواسطة علم التنويم المغناطيسى واستحضار الأرواح وغير ذلك ، مما دوى له العالم العلمى فى أوربا ، وصار له أكثر من مائتى مجلة خاصة ، وزيادة عن خمسة وعشرين مليوناً من الأتباع والأنصار من العلماء الأعلام وأصحاب المدارك الواسعة . . .

أما الباب الخامس ، وهو الذى سماه باسم « الوجديات » فقد قال عنه :

« سنأتى فيه كل شهر على مقامة خيالية تحتوى على عبرة تهيئية أو فكرة فلسفية . نعطى الخيال فيها غاية قوته ، والقلم نهاية ابداعه » .

وكان قد بدأ بهذه المقامات - كما رأينا - منذ السنة الاولى من الحياة ، متخذة عناوين مختلفة إلى أن استقرت أخيراً على هذا العنوان : الوجديات .

ولم يذكر فى هذه الابواب الخمسة التى رسم فيها خطة المجلة ، فى مقدمتها ، باب المسائل ، وكان من الابواب المطردة فيها ، يجب فيه على

ماوجه اليه من مسائل مختلفة متصلة بموضوع المجلة، اجابات مستفيضة في
الاعم الاغلب .

وقد استمرت الحياة تصدر بانتظام، شهرا بعد شهر، طوال السنة الثالثة.
وفي خلال السنة الرابعة أخذ محمد فريد وجدى يفكر في إصدار
صحيفة يومية ، حتى إذا أصدرها في أواخر سنة ١٩٠٧ ، ولم تلبث أن
استبدت بوقته كله ، واستغرقت معظم نشاطه ، كان لذلك أثره على مجلة
الحياة .

وقد تحدث الأستاذ العقاد عن هذه المرحلة من الحياة في سياق الفصل
الذى كته بعنوان : « أزمة قلم » من كتابه : « حياة قلم » . قال :

« كان الأستاذ فريد وجدى يصدر مجلة شهرية تسمى (الحياة) ،
ويكتب فيها أحيانا مقامات خياليه تسمى بالوجديات ، ثم تفرغ لإصدار
الدستور ، وترك المجلة إلا في فترات متباعدة ، يعاودها كلما اجتمع لها من
مادة الفصول الأدبية ما يملأ عدداً من اعدادها وربما اختار بعض هذه
الفصول من مقالاتى التى كنت أنشرها فى الصحيفة اليومية » .

فقد ظلت الحياة تصدر إذن بعد صدور جريدة الدستور ، وإن كان
صدورها بصورة غير منتظمة . وسنرى حين نتحدث عن « الدستور »
إن شاء الله أنها كانت خليقة أن تصرفه عن كل شيء عداها ، لا بتحريرها
وإدارتها فحسب ، ولكن بما جرت عليه - فوق ذلك - من مشاكل
سياسية وأزمات حزبية .

وحين توقفت هذه الصحيفة عن الصدور كان محمد فريد وجدى
يرجو أن ينصرف إلى « الحياة » يتوفر عليها ، وتحدث في ذلك مع الأستاذ
العقاد - كما يحكى في هذا الفصل - قائلاً « إنه يرجو أن تتعاون معاً
في عمل صحفى نحن أقدر عليه ، وأصلح له ، من الصحافة السياسية ، وإنه

يدرس الفكرة ويلخصها لى ، عسى أن أفكر فيها . ورجو أن يبلغنى نتيجة درسه لها بعد أسبوعين أو شهر على الأكثر ، إذا صح العزم على الشروع فى تنفيذها . . . كما قال : « إن الحياة أولى بمقالاتك من الصحيفة اليومية . وإنك تستطيع إن تجرب قلمك فى المقامات ، فتظهر الحياة وفيها مقاماتك ومقالاتك ، إلى جانب الوجديات . ولولا أننى أنتظر حتى أعلم أن هذا العمل يعوض تكاليفه ، ويغنيك عن عمل آخر ، لشرعنا فيه منذ الساعة ولكننا قد نشرع فيه بعد أسابيع ، (١) .

فقد كان فريد وجدى يرجو أن يفرغ لهذه المجلة التى تثير فى نفسه ذكريات عزيزة والتى استطاع أن يؤدى بها - كما كان يقدر - خدمات جليلة للفكر الإسلامى والإصلاح الدينى ، فيستأنف إصدارها فى صورة منتظمة ، ويشترك معه فى تحريرها العقاد ومن إليه من يتوسم فيهم مشاركتة فى اتجاهه .

ولكن يبدو أن المحنة التى امتحن بها فى جريدة الدستور ، والتجارب التى عاناها فى إصدارها ، على النحو الذى نرجو أن نشرحه فى موضعه ، جعلته يترتب ويتلبث ويطيل التفكير والتقدير فى أمر هذه المجلة ، وما إذا كانت تستطيع أن تعوض تكاليفها ، ولا تتعرض لما تعرضت الدستور له . وإلى جانب ذلك كان قد أخذ - فيما يبدو - فى وضع مشروع دائرة المعارف موضع التنفيذ ، فهو مشغول بجمع مادتها ، وكتابة فصولها فكان فى ذلك ماصرفه عن الاستمرار فى إصدار الحياة أو استئناف إصدارها ، ريثما يفرغ من هذه الدائرة ، وإذ ذاك يستطيع أن يعود إليها ، ويستأنف إصدارها ، وسنرى أنه لم يكذب طمأن إلى أن دائرة المعارف قد شقت طريقها حتى عاد إلى الحياة ، سنة ١٩١٤ .

١٤

جاء محمد فريد وجدى إلى القاهرة شابا ناضج الشخصية ، فى السابعة والعشرين من عمره ، مزودا بذخيره علمية وافرة ، ممتلئ القلب طموحاً إلى أن يتاح له فى القاهرة تحقيق مالم يتهيأ له فى السويس بالصورة المرجوة ، بما انحدت به آماله ونيط به هواه . وقد سبقته إليها سمعة رنانة كانت الأوساط الأدبية والدينية تردد أصداءها ، فلا جرم أن استقبلته هذه الأوساط — فيما نقدر — استقبالا جديرا بالمنزلة التى بلغها بكتبه والشهرة التى انبعشت من دراساته . كما رحبت به الصحف التى كانت تصدر إذذاك بالقاهرة كالمؤيد واللواء والمنبر ، وكأثمارأت فيه مؤازرا قويا بما تروجو أن يكتب لها من فصول . وكان ذلك — ولا ريب — أمرا قريبا من نفسه ، إذ كان يحقق له الغاية التى يتجه إليها ، ويمهد لآماله سبيلها . وهكذا أخذت هذه الصحف ، منذ بلغ القاهرة ، تحمل بين حين وآخر مقالاته .

وطبيعى أن يكون هنا لك شيء من التفاوت والاختلاف بين ما جعل يكتبه فى القاهرة وما كان يكتبه فى السويس ، فتنخذ هذه الفصول التى يكتبها هنا ، فى هذا المالم الزاخر المضطرب ، طابعا يختلف إلى حد ما عن طابع ما كان يكتبه هناك ، فى ذلك العالم الساكن المقصور ، وقد كان أكثر أمره فيه هو معالجة مسائل الاجتماع والدين والفلسفة معالجة تغلب عليها الناحية النظرية والتأمل الفكرى . أما فى القاهرة فأنها فرضت عليه الاتصال بالأوساط المختلفة ، بالرغم من طبيعته الانعزالية ، وجعلته يشارف مسائل المجتمع ومشاكله ، ويشارك فى مناقشتها ، ويقف بذلك على وجوها مختلفة . فكان من ذلك — إلى جانب طبيعة الكتابة الصحفية — ما فرض عليه أسلوبا ينظر إلى الواقع ويصدر عنه ويبنى عليه ، فيما كان يعالجه فى (م ٨ — محمد فريد)

مقالاته ، وإن كان يستند إلى حصيلته الواسعة من النظريات الفلسفية والمذاهب العلمية والتاريخ الاجتماعي .

ويبدو أن من أول ماواجهه في سبيله هذه الجديدة ، وفرض عليه أن يعالجه ويسخر له قلمه ، مسألة الأزهر وبرامج الدراسة فيه ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل ، فقد كانت هذه المسألة تتصل اتصالاً وثيقاً بتكوينه العقلي واتجاهه الديني .

وكانت مسألة الأزهر من أخطر المسائل بقدر ما لهذا المعهد من منزلة دينية رفيعة ، ومكانة تاريخية كبيرة راسخة ، كما كانت من أعقد المشاكل التي يواجهها المجتمع المصري ، بما كان بداخلها من عوامل مختلفة وعناصر متباينة متضاربة ، وقفت بهذه المشكلة في مكانها دون حل سنين طويلة ، منذ أخذ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده يدعو إلى إصلاح الأزهر ، في أوائل العقد الأخير من القرن التاسع عشر ، إلى أن قضى نهجه في منتصف العقد الأول من القرن العشرين . بل لعلها ترجع إلى ما قبل ذلك ، منذ دب ديب الحياة الجديدة في الفكر الإسلامي ، في أوائل القرن التاسع عشر .

وكان إصلاح الأزهر ، بحيث يسير الحياة الجديدة ، ويأخذ بمطالبات التطور العلمي ضرورة لا معدى عنها ، ليظل محتفظاً بمكانته مؤدياً وظيفته ، ولكنها — مع ذلك — وجدت معارضة شديدة ومقاومة بالغة من طائفة غير قليلة من شيوخ الأزهر وكانوا يصرون في موقفهم هذا عن طبيعة الجود والنفور من الجديد الراسخة في أنفسهم وعن الاستجابة لارادة الخديوى أن يظل الأزهر شيئاً تابعاً له وأن يظل أهله ورجاله بطانة خاصة له ، فهو حريص على أن يكون بعيداً عن كل حركة تنبئ باستقلال الفكر أو تؤخذ بالقدرة على اتخاذ موقف خاص . كما عبر عن ذلك بقوله في الاحتفال بخلع كسوة التشریف على شيخ الأزهر الذى عين في

منصبه عقب خروج الأستاذ الإمام من مجلس إدارة الأزهر وهو الشيخ عبد الرحمن الشربيني^(١) معرضاً بما كان يدعو إليه الأستاذ الإمام :

« إن الجامع الأزهر قد أسس وشيد على أن يكون مدرسة دينية اسلامية تنشر علوم الدين الحنيف في جميع الأقطار الإسلامية . وأول شيء أطلبه أنا وحكومتي أن يكون الهدوء سائداً في الأزهر الشريف ؛ والشغب بعيداً عنه ، فلا يشتغل علمائه وطلبته إلا بتلقي العلوم الدينية النافعة البعيدة عن زيف العقائد وشغب الأفكار لأنه هو مدرسة دينية قبل كل شيء » .

وقد كان تعيين هذا الشيخ ، بعد خروج الأستاذ الإمام من مجلس إدارة الأزهر ، شيخاً للأزهر ، وذلك التصريح الذي القاه الخديوي عباس إيداناً بمقاومة كل دعوة إلى إصلاح الأزهر وردع كل حركة ترمي إلى إسباغ شيء من طابع العصر عليه . وقد ردد الشيخ عقب هذا التعيين في حديث له لبعض الصحف رأيه ورأى السراى في بقاء الأزهر على ما هو عليه ، بعيداً عن كل تغيير أو حركة تطوير ؛ إذ يقول في عبارات صريحة :

« ان غرض السلف من تأسيس الأزهر اقامة بيت الله يعبد فيه ، ويؤخذ فيه شرعه ، ويؤخذ الدين كما تركه لنا الأئمة الأربعة ، رضوان الله عليهم . وأما الخدمة التي قام بها الأزهر للدين ، ولا يزال يؤديها ، فهي حفظ الدين ، وما سوى ذلك من أمور الدنيا وعلوم الأعصر فلا علاقة للأزهر به ولا ينبغي له » .

(١) كان هذا الشيخ من أشد خصوم الدعوة إلى إصلاح الأزهر ، وقد استقال من مجلس إدارة الأزهر ، لعدائه للشيخ محمد عبده ، داعية الإصلاح ؛ حتى إذا اقصى الأستاذ الإمام عن هذا المجلس كان هو المرشح لمشيخة الأزهر .

فليس للأزهر ، إذن ، أن يغير كثيراً أو قليلاً من أوضاعه ، ولا يخرج على الغرض من تأسيسه ، وهو خدمة الدين التي لا يزال يؤديها . ثم يقول بعد ذلك عن الدعوة التي كان ينادى بها الأستاذ الإمام وأشياعه إلى إصلاح التعليم فيه :

« إن الذي حدث من شأنه أن يهدم معالم التعليم الديني فيه ، ويحول هذا المسجد العظيم إلى مدرسة فلسفة وآداب ، تحارب الدين وتطفيء نوره في هذا البلد ، وفي غيره من البلاد الإسلامية . . . ولاني اسمع منذ سنوات بشيء يسمونه حركة في الأزهر ، أو إصلاح الأزهر ، ولكنني لم أر لهذه الحركة وهذا الإصلاح من نتيجة تذكر سوى انتشار الفوضى في ربوعه » .

فذلك هو الرأي الرسمي في مسألة الأزهر ، كما عبر عنه رأس الدولة الخديوي عباس ، وشيخ الإسلام ، الشيخ عبد الرحمن الشربيني : الأزهر مسجد ديني ، وعلوم الفلسفة والآداب أدوات لمحاربة الدين وإطفاء نوره . فالدعوة إلى ادخال هذه العلوم في الأزهر هي محاولة لجعله « مدرسة فلسفة وآداب ، تحارب الدين وتطفيء نوره ، في هذا البلد وفي غيره من البلاد الإسلامية » إلى جانب كونها دعوة إلى « انتشار الفوضى في ربوعه » ، وهو ما حذر الخديوي منه .

ولكن كل هذه التصريحات والانذارات ، وما سبقها من اقضاء الأستاذ الإمام عن مجلس إدارة الأزهر ، وتعيين رأس المعارضين للإصلاح شيخاً للأزهر ، وما تلاها من مرض الأستاذ الإمام ووفاته ، لم تقض على حركة الأزهر والدعوة إلى إصلاحه ، بل لم تستطع أن تقفها ، فقد مضت هذه الحركة في طريقها ، واستمر تلاميذ الأستاذ الإمام ومريدوه يرددون دعوته ، ولكن في شيء من المحاذرة والتوجس . وجعلت الأندية الأدبية في القاهرة تردد أصداء هذه الحركة ، ولم يكن من الممكن

بالقياس الى رجل مثل محمد فريد وجدى وقف نفسه على الاصلاح الدينى
أن يقف ناحية من الدعوة الى اصلاح التعليم فى الأزهر ، وهو من أهم
أصول ماوقف نفسه عليه . ولم يكن من اليسير — وهو من عرفنا اعتدادا
بنفسه واعتزازا باستقلاله — أن تمنعه صلة ما بالخديوى جعلته يتوج
باسمه كتاب الاسلام فى عصر العلم ، ومايعلمه من أن هذا الخديوى
عدو الاصلاح الأول ، وأنه كان من أشد أعداء الأستاذ الإمام لندا
وضراوة ، لم يكن من اليسير أن يمنعه ذلك من أن يؤدى واجبه ، ويؤازر
هذه الحركة ، بل يشارك فيها ، فكان ممن كتب فى هذا الشأن مقالات
متتابعة فى جريدة المنبر والمؤيد ، كما يقول .

وقد أشرنا من قبل الى مقالاته التى كتبها فى أوائل عهده بالقاهرة
عن التعليم فى الأزهر وكان هو الذى أشار الى هذه المقالات ، بمناسبة
خبر عن تقدم طلاب الأزهر بعريضة يطالبون فيها اذ ذاك (سنة ١٩٠٨)
بتدريس العلوم التى تدرس بمدرسة القضاء ، ترشيحاً لهم لتولى وظائف
المحاكم فكتب فى التعليق على هذا الخبر ، بعد أن أبدى سروره بهذه
النهضة ، وإن تأخرت عامين عن وقتها المناسب .

» نذكر فى هذه المناسبة أننا كتبنا فى نقص العلوم الأزهرية عدة
مقالات سنة ١٩٠٥ فحضر إلينا جمهور من الطلبة يطلبون إلينا أن نتوسط
بينهم وبين من ييدهم الأمر فى إلالتهم حقهم من هذه العلوم فقلنا لهم :
إن الحكومات لا تجيب الا أصوات الجماهير عادة ، فإن كنتم تحسون بهذه
الحاجة فارفعوا عريضة للجناب العالى بمضاه من نحو ألف طالب أو ألفى
طالب . فقالوا : وكيف السبيل الى جمع هذه الإماءات والمشيخة متى

— ١١٨ —

شعرت بناقطعت جراياتنا، وتصيدتنا، واعتبرتنا خارجين على النظام ولا سيما
وهي تكره تلك العلوم أشد الكره، وتبهرم من درس الرياضة وتقويم
البلدان. فقلنا لهم: إن لم تفعلوا ذلك فلا نملك لكم شيئاً، فانصرفوا^(١).

(١) جريدة الدستور، عدد ٢٠ مايو سنة ١٩٠٨.

١٥

لم نستطع أن نقف بعد على المقالات التي كتبها محمد فريد وجدى ، وأشار إليها في حديثه الذى أشرنا إليه آنفاً^(١). ولكننا نستطيع أن نجتزئ عنها بمقالتيْن كتبهما في جريدة المؤيد ، أولاهما في ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٠٦ والثانية في ٩ ديسمبر ، بعنوان : « اصلاح الأزهر » . وقد أعاد نشرهما في الجزء الثامن من المجلد الثالث من مجلة الحياة بمناسبة ما أعلنته « نظاره المعارف » ، من خبر عزمها على إنشاء مدرسة للقضاء الشرعى .

وقد اتجه في هاتين المقالتيْن إلى نقض الأصل الذى يتوكأ عليه معارضو الإصلاح ، وهو أن الأزهر مدرسة دينية لا شأن لها إلا بعلوم الدين ، من أجل ذلك أنشئت ، وعلى ذلك قامت ، وفى هذا الطريق مضت حتى اليوم كما رأينا فيما أوردنا من حديث الخديوى عباس وشيخ الأزهر الشيخ عبد الرحمن الشربينى . وذلك عنده وضع لاحقيقة له ولا سند يعتمد عليه لامن تاريخ الأزهر خاصة ، ولا من الأصل فى المدارس الإسلامية فى القرون الاولى عامة ، وإنما هو وضع حادث فى عصور الانحطاط . وفوق هذا فإن هذا الوضع الذى يصير معارضو الإصلاح على لزومه للأزهر ، هو العلة الرئيسية فيما يعانیه . ولا سبيل إلى نهوض الأزهر من وهدة التي يتردى فيها إلا بزوال هذه العلة الاولى .

(١) ليت جامعة الأزهر — وهى تنبأ الآن للاحتفال بالمئذى للأزهر ، وتمد فى ذلك ، فيها نقدر ، كتاباً ضخمًا عن هذه الجامعة الكبرى — تجعل من اجزاء هذا الكتاب جزءاً خاصاً تؤرخ فيه حركة اصلاح الأزهر ، مبينة وجوهاً وأطوارها ، متقصية ما كتب فيها ، ثم يكون من تمام ذلك أن يجمعه وتذكره فى هذا الجزء . ومن ذلك — بطبيعة الحال — مقالات محمد فريد وجدى .

أما عن فساد دعوى أن الأزهر مدرسة دينية فإنه يشرح ذلك بقوله :

« يقول المتكلمون كلما عرض لهم ذكر الأزهر إنه (كلية دينية) ، وهي تسمية حادثه ضللت أكثر المتكلمين عليه في مذاهب إصلاحه ، وهي لا تنطبق على غرض بانيه ولا على ما فهمه اساتذته وتلاميذه قرونا كثيرة ؛ والحقيقة أن الأزهر كان (كلية علمية عامة) لالدين خاصة ، قصد بها واضعها أن تكون على مثال كل الكليات التي كانت منتشرة في العالم الإسلامي ، في القرن الرابع الهجري ، وماعدنا المسلمين في دورهم ذلك قد قسموا مدارسهم إلى دينية ودنيوية ، بل عهدناهم موحدين . فكانت المدرسة التي تعلم فيها ابن رشد الفقه ، حتى صار من أصحاب الأقوال في مذهب مالك ، هي نفس المدرسة التي تعلم فيها الرياضيات والطبيعيات . والفلسفة^(١) وكان الأزهر الذي نبغ فيه الجلال السيوطي في العلوم الدينية هو نفس المعهد الذي درس فيه الطب والاقرباذين ، وقل مثل ذلك في سائر العلوم الرياضية والفلكية والتاريخية التي كان الأزهر معهدا لها من لدن القرن الرابع الهجري إلى عصر سقوطه في القرون المتأخرة . وبناء عليه فقد كان الأزهر كلية علمية للعلوم عامة لالدين خاصة . وإنما غلب الدين فيه سائر العلوم الأخرى لرواج علومه في تلك الأزمان ، لسرعة ارتقاء المتبحرين فيه في الجاه والشرف — وعندنا أن مجرد تعديل هذه النظرة التاريخية على الأزهر يعدل كثيرا من أفكار المتكلمين فيه .»

(١) لعلة خلط بين ابن رشد الجدد ، قاضي الجماعة بقرطبة ، وابن رشد الحفيد الفيلسوف ، على أن هذا الأخير كان فقيها أيضا ، وقد قال ابن الأبار عنه : كان يفرع إلى فتواه في الطب ، كما يفرع إلى فتواه في الفقه .

وبعد أن فرغ من تقرير هذا الأصل في إنشاء الأزهر ووضعه، انتقل إلى الكلام عن الأسباب والملاسات التي انحرفت به عن ذلك الأصل ، وحولته عن ذلك الوضع ، فقال :

« دام الأزهر كلية علمية عامة ، ونبت فيه في العلوم الكونية والإنسانية من لا يحصى لهم عدد ، ثم لحقه الاضمحلال بتوالي الفتن في البلاد ، والاضطراب في الحكومة . والعلم لا ينجب رجالا في القلاقل . حتى جاء دور المماليك ، فانحطت العلوم الطبيعية فيه عما كانت عليه في أسوأ حالاتها السابقة ، وما زالت تنحط حتى جاءت دولة محمد علي باشا ، فوجد الأزهر على هذه الحالة ، وكان قد علم من قرع التجارب أن الأمة المصرية لا تحيا إلا بإدخال النظمات الأوروبية إليها ، سواء في الجندية أو المعارف فاندفع في فتح المدارس على الطراز الأوربي ، وفتح البلاد لمدينة أوربا وعلومها وصنائعها ، فكان هذا أول ما أصاب الأزهر من عوامل التحليل الحقيقية ، لأنه أفقده مكانة التفرد بالعلم في البلاد ، فبعد أن كانت الأمة العربية لا تعرف بعد الكتائب الحفيرة غير الأزهر ، أصبحت ترى بجانبه معاهد للعلوم حاضبة من عناية الحكومة بقسط أوفر ، فلم يسع الأزهر ، وقد رأى اندفاق علوم أوربا على البلاد ، إلا أن وطن نفسه على أن يكون كلية دينية محضة .

رأى الأزهر يون باعينهم هذه الانقلابات المسرعة ، فلم تأخذهم العبرة للاخذ بالأحسن من الجديد الطارئ عليهم ، كما هو نص الكتاب والسنة . . . وكان الحق أن يعلموا ، وقد رأوا المثالات أمام أعينهم ، أن البقاء على القديم يورث القهقري والخذلان ، ولكنهم علموا ولم يعملوا ، أو لم يعملوا ، فلم يعملوا ، وكلاهما في نظر النواميس واحد .

كان هذا الانكماش من الأزهريين عن الاستفادة بالجديد عاملا ثانيا من عوامل انحطاطه .

ثم لما جاء عصر الخديوى الأسبق استدعت حالة الأمة تقرير سلطة منتظمة للمحاكم فكثرت الكلام عن الشرع والقضاء والنظام بين أهل الحل والعقد إذ ذاك ، فكان صوت الأزهريين فى تلك المعامع النظامية أخفت الأصوات ، وكان الحق أن يكون أعلاها ، فكان ذلك مفقدا لأكثر ما تبقى لهم من الاعتبار فى أعين الخاصة ، فأثر ذلك تأثيراً سيئاً على سمعتهم التاريخية .

ثم اندفعت علوم أوربا فى البلاد ، وتسربت معها الشبه والشكوك ، فجاءت الناس تطلب حلولها ، وتعطشت الافتدة لتلمس المخرج منها ، فجاء سكوت الأزهريين بأزاء هذه المطالب مضيقاً عليهم أكثر مابقى لهم فى قلوب العامة أيضاً .

ذلك هو الأزهر فى أصله وحقيقة وضعه ، وتلك هى الأسباب التى خرجت به عن هذا الأصل ، والملايسات التى لا يسته فحصرته فى تلك الزاوية ، وصارت به إلى ذلك الوضع الأخير ، وهو كونه مدرسة دينية لا شأن لها بغير الدين . وهو نفسه العلة الرئيسية فيما يعانى من ضعف وهوان .

وليس هذا عند فريد وجدى إلا نتيجة لقانون عام ، خضعت له فى هذا العصر كل معاهد الأديان . فما أصاب الأزهر بسببه هو صورة مما أصاب تلك المعاهد ، وذلك إذ يقول :

« ما يراه الناظر فى الأزهر من اختلال النظام واعتلال الأحوال ، كل ذلك أعراض لعلة رئيسية لا تزول إلا بزوالها . وفى رأينا أنه لو أثرت يد قوية على الأزهر ، فآتته بكل ضرب من ضروب النظام ، مع اغفال تلك العلة الرئيسية ، فلا يلبث الخلل بعيداً عنه غير قليل ، ثم يتسرب إليه بأشد مما كان ، فإن العلل تدعو أعراضها دائماً .

تلك العلة الرئيسية هي شكل من أشكال تلك العلة العامة التي أملت بكل معاهد الآديان في العالم ، فأورثتها الانحطاط وسقوط الذكر . فما من بلد في الدنيا المتمدنه إلا وقد غرض طرفه عن رجال الدين ومعاهدهم . ومن الأمم من جاهرتهم بالعداء ولمصادرة . وبيان السبب في ذلك يستدعى منا أن نخوض بالقارىء لجنة العلم والفلسفة والتاريخ ، وهو ما لا محل له في هذه الجملة . وإنما الذى نقوله على عجل هو أن الأمم قد ترفت مداركها ولطفت مشاعرهما ، وصفا وجدانها ، وتفوضت من أذهانها دولة الخيالات والأوهام ؛ فهي تريد أن تدرك الدين اليوم على شكل يناسب مكانها من العقل فى الدور الذى وصلت إليه ، وتريد غير ذلك ألا ترى الدين صناعة يحتكره رجال مخصوصون ؛ يلبسون له أزياء خاصة ؛ وينفصلون عن مجموع الأمة باعتبارات وهمية .

بلغت الأمم إلى هذا المستوى الذى هو مطلوب القرآن ، فى أخص معانيه . ولكن رجال الدين ، فى سائر أصقاع الأرض ، قد مثلوا دور الجود فى أظهر أشكاله ، فأبوا تسليم مقادتهم لناموس الترقى الذى هو أخص صفات الأحياء ، ونازعوا العلم حقه فى مقارعة الظنون والأوهام واستكنائه مجاهيل السكون ، وعضوا على حالهم هذا بالنواجذ ، فانقطعوا عن الأمم ، حتى فى اللسنة والجلسة .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن رجال الدين لبعدهم عن مواقع الحوادث الكونية المؤدبة ، والعظات الوجودية المهدبة ، حرموا من التعرض لنفحات الحق التى يرسلها الله على عباده ، فى أطواء الحوادث وثنيات الانقلابات ، حتى أصبحوا يمثلون حالة القرون الوسطى بكافة أشكالها . . .

هذه هي العلة الرئيسية التى يشكو منها الأزهر وأمثاله فى العالم كله .

فمحمد فريد وجدى ، فى بحثه لمسألة الأزهر ، لا يدرسها ، وحسب ،
 فى نطاق تاريخه ، وما تعرض له من علل ، وما لاسبه من ملاسبات ،
 انحرفت به ، ولكن يدرسها فوق ذلك ، على ضوء ما تعرضت له المعاهد
 الدينية عامة ، والأوضاع التى صارت إليها الهيئات الدينية فى العالم ، وفى
 نطاق دراساته عن الدين والعلم وعلاقة ما بينهما ورأيه فى الدين الإسلامى
 من هذه الناحية ، فتأدى إلى أن الأزهر ، بانحرافه عن وضعه الأول ،
 وبخروجه على المبدأ الإسلامى ، باتخاذ ذلك الطابع الدينى الخاص والشكل
 السكهنوتى الضيق ، إنما يحمل بذلك العلة الأولى فيما يعانىة ، مما يشفق دعاة
 الإصلاح من عواقبه ، ويعملون على معالجته ، ولن يتاح ذلك له ، مهما
 سن له من نظم ، إلا بإزاحة هذه العلة عنه ، وتعديل وضعه على النحو
 الذى يشرحه بقوله :

« فرأى أن إصلاح الأزهر لا يتأتى إلا برفع هذه العلة العامة عنه ،
 وذلك إما بحمله كلية عليية عامة ، ويكون الدين من بعض فروعها ، كما كان
 غرض واضعه . وإما قصره على أن يكون كلية دينية محضة ، على شرط
 إدخال العلوم الجديدة إليه ، بحيث يكون المتخرج منه صالحاً لأن تعتبره
 نواحي البلاد عمدة يرجع إليه فى فهم الشريعة والديانة على الصورة التى
 تتناسب ومكانة المعارف العصرية . ولا بد من اعتبار شهادة الأزهر ،
 بعد ادخال هذه العلوم إليه ، شهادة تخول صاحبها الحق فى التربع فى
 الوظائف العالية ، لئلا يتخذ الدين صناعة ، وهو المظهر الذى أصبح
 لا يحتمل فى نظر الناس الآن ، وسيكون من أحقر الوسائل فى المستقبل .

وكل هذا لا يتأتى إلا بإخضاع الأزهر لنظامات المدارس العالية ،
 بتقسيمه إلى قسم تحضيرى يليه قسم ابتدائى ثم ثانوى ثم عال . ويحتاج
 لقبول الطلبة من جهة السن والصحة واللياقة بعين ما يحتاج به لكل مدرسة
 فى العالم . »

فها هو ذا يرى أن أساس الإصلاح هو أن يخلع الأزهر رداءه الديني، وينزل عن تلك الصفة التي رأينا مبلغ حرص الرسميين عليها وعلى ألا تداخلها صفة أخرى، من الخديوي إلى شيخ الأزهر، واعتبار كل تعديل لها أو إضافة إليها جناية عليه بل جناية على الدين الذي يمثلها، ووسيلة إلى محاربتها وإطفاء نوره. وسواء بعد ذلك أن يصبح الأزهر، «كلية علمية عامة» - وهو ما صار إليه الآن في آخر مراحل إصلاحه - أو يقصر على أن يكون «كلية دينية محضة على شرط أدخلال العلوم الجديدة إليه الخ مذكوره» وهو ما كان يتمثل في مراحل الإصلاح السابقة كما نعرف.

وهو يرى في هذا الإصلاح الضمان الوحيد لبقاء الأزهر. وإلا فيشبهه أن يكون مصيره مصير تلك المعاهد الأوربية التي كانت ملصكا لرجال الدين «وكانوا، بازاء الرقي العلمي في القرن السابع عشر وما تلاه، يمانعون المصلحين في ادخال العلوم الطبيعية إلى معاهدهم، بل يابون على ناصحيهم تغيير شكل دروسهم. . ومازالوا يدافعون ويندفعون حتى تغلب عليهم خصوصهم بقوة فاموس الرقي وقلبوا تلك السكليات الدينية إلى كليات علمية تنازح الأديان وتعادياها، بعد أن طردوا رجال الدين منها»^(١).

ولكنه بعد أن ساق ذلك المثل وأشخص أمام الأزهر ذلك النذير، رجع فعقب عليه بقوله : «ونحن لا نقول إن التاريخ يعيد نفسه ، وسيكون هذا حال الأزهر في زمن من الأزمان . وإنما نقول إن أحلام أعلام الأزهر أكبر من أن تدعهم يسجلون على دينهم تهمة الجود ، فإنهم في نظر الأجانب عنوان الدين . وفي الحوادث عبرة لمن اعتبر ، والسعيد من بغيره ازدرج» .

(١) ومن قبل قال الأستاذ الأمام الشيخ محمد عبده : « يستحيل بقاء الأزهر على حاله » فلما أن يصاح وأما أن يسقط « كما حكى منه السيد محمد رشيد رضا (المنار ، المجلد العاشر ، الجزء الأول) .

وبهذه العبارات يختم مقاله الأول، ليتحدث في المقال الثاني عن ضرورة إصلاح الأزهر لحياتنا في نواحيها المختلفة دينية وعلمية واجتماعية، وذلك ببيان علاقته بهذه النواحي . « ليتجلى للعالم القارىء ، برهان جديد ، أن بقاء هذا المعهد الدينى على حالته من الاختلال خطر على الأمة من هذه الوجوه الثلاث » فليس خطر بقاءه على حالته تلك « بصفته مدرسة علمية ، ولكن بصفته معهد الهيئة الإسلامية الذى له من هذه الحيشة علاقات أكيدة بحالة المسلمين من الجهات الدينية والعلمية والاجتماعية ،

١٦

كان موضوع الأزهر من أول الموضوعات التي غلبت على تفكير محمد فريد وجدى كمارأينا، وكان حديث اصلاحه من أثر الأحاديث عنده منذ جاء القاهرة في أواخر حياة محمد عبده، رائد الإصلاح وصاحب الصوت الرفيع القوى في الدعوة إليه . وكان الكلام عنه - كما يقول في صدر ثاني مقالتيه اللتين ذكرناهما منذ قليل - « كثير الشعب على قدر تعلق ذلك المعهد بحالة المسلمين الدينية والعلمية والاجتماعية . ولو أفرد الكتاب في الكلام عن الأزهر من هذه الجهات الثلاث المجلدات لما كانوا متعددين الواجب . ولو كان للاوربيين شأن مع معهد لهم مثل مالنا مع الأزهر لشهد العالم كله مضمارا جدليا تسيل فيه الأفهام على ظبا الأقلام ولا تزال هذه الحرب العلمية حامية الوطيس حتى تنجلي عن فوز أحد الحزبين فوزاً نهائياً لأن الحياة جعلت القوم لا يغمضون على القذى ولا يسكتون على الشجى » .

كذلك كان الأزهر عنده، فلا جرم كاد يستأثر باهتمامه على الصورة التي رأينا طرفاً منها . فكان لا يزال يتناوله بدرسه والحديث عنه من هذه الناحية وتلك، مصوراً قصوره عن إمداد أهله بما هم في أشد الحاجة إليه لأداء وظيفتهم والقيام بواجبهم نحو الدين ومواجهة الشبه التي توجه إليه، بما يدحضها ويقلل غريبها، فاصبح العلماء بما أدخلوا أنفسهم فيه من الانقطاع للاقاويل المعضلة وفك رموز كلام بعضهم بعضاً أعجز الناس عن رد شبهة أو دحض فرية أو إقامة حجة . وقد علمت العامة منهم ذلك فلوت السكشع عنهم وتركتهم وشأنهم . وصار العامة بما وقر في نفوسهم من عجز علمائهم وعدم غنائم عنهم، في حالة فوضى لا ضابط لشهواتهم ولا رادع لاهوائهم ... وأصبح متنورو الأمة بما يرونه من حال العلماء وجمودهم

على ما لا يتفق مع عقل ولا طبع مستقلين في آرائهم متقاطعين في دعاويهم، لكل منهم مذهب خاص؛ أصبح منهم الملحد البحت لا يصدق ببعث ولا بتواب ولا بما فوق ذلك من العقائد الغيبية ومنهم المصدقون بذلك على صفات كونوها في افتدتهم واستمدوها بظنونهم، ومنهم من تراكمت الشبهات على أذهانهم ففاضت على افتدتهم فلم يعرفوا لهم مركزاً بين الشكوك والحيرة»^(١) إلى آخر ما جره قصور التعليم في الأزهر على سائر الأمة.

وإذا كانت هذه المقالات قد اسخطت طائفة من شيوخ الأزهر وأثارت غصبهم، فلا ريب أنها استطاعت أن تستهوى طائفة من طلابه الذين كان يسوهم أن يروا هذه المفارقة الضخمة بين ما هم عليه وما ينبغي أن يأخذوا به، فكانوا يتطلعون إلى آفاق وراء ذلك الأفق الضيق الذي يتمثل في حلقات شيوخهم، وما يتردد فيها من أقوال وبما حكت لفظية لاصلة لها بالحياة الفسيحة الزاخرة وراء ذلك الأفق.

أثارت هذه المقالات تطلعات أولئك الطلاب نحو هذه المعارف التي كانت تتبرج لخيالاتهم، فاتجهوا إلى صاحب هذه المقالات : يتحدثون إليه في شأنها، ويتساءلون عن الوسيلة إليها، ويتمنون لديه لو استطاعوا أن يتزودوا بالعلوم التي يرى ضرورة التزود بها، أو لو أنه قبل أن يتخذهم تلاميذ له فيها.

ورأيت لديه الفكرة . ألا بعد هذا جزءاً من رسالته التي أخذ نفسه بها، وباتخاذ كل وسيلة ممكنة لتحقيقها ؟ ولم يلبث أن شرع في وضعها موضع التنفيذ . ولم يكن يعوزه لذلك غير المكان الذي يلقي فيه دروسه على طلابه هؤلاء . ولم يكده يفتح في هذا الأمر صاحب المدرسة التحضيرية

(١) مجلة الحياة، المجلد الثالث، صفحة ٨ (فصل : الإسلام، ماضية وحاضره).

سيد أفندي محمد ، حتى رأى أن يوسع له مكانا في مدرسته ، يحاضر فيه طلابه . وهكذا ، وبهذه البساطة ، تكونت هذه المدرسة الجديدة التي كان يقوم بالتدريس فيها وحده ، وقد سماها « مدرسة العلوم العالية » ، وحدد الغرض منها بأنه « تخريج فرقة من حملة العلوم الدينية ، في المعارف العصرية والفلسفة الحديثة ، ليكُونُوا على بيئة من أمر الدفاع العصري عن هذا الدين الحنيف » .

أما بروجرام هذه المدرسة فيتلخص - كما أورده في الجزء الحادى عشر من المجلد الثالث من الحياة - في « العلوم الكونية والاجتماعية ، بأصولها وفروعها ، ثم شرح تفصيلات هذه الجملة ، فقال عن الشطر الأول من هذا « البروجرام » كما يسميه :

« فیدخل تحت الاسم الأول جميع العلوم الطبيعية ، على أسلوب ينشئ لدى الطالب فكرة عامة صحيحة عن الكون وعوالمه ، والعلوم التي وضعت لها » . وقد عقب على هذا بأنه سيضع لذلك كتابا جامعا على طريقة جديدة مناسبة لوظيفة طلبية العلم الدينى ، مجليا لهم فيه وجوه العبر الكونية والآيات الوجودية ، منبها أذهانهم إلى مآخذ البراهين الدينية منها ، على الأسلوب الذى دعا إليه دين الفطرة ، الإسلام ، لتقلب العلوم الطبيعية موقظا لعاطفة الإيمان لا الإلحاد . وإنما تنسرب الضلالات إلى الأذهان من تعلم الطبيعيات لفساد أسلوب تدريسها . وقد قال العلامة بأكون الإنجليزى : « علوم الطبيعة إذا رشفت بأطراف الشفاء أبعدت عن الله ، وإن شربت عبا أوصلت إليه » .

ثم جعل يتحدث بعد ذلك عن الشطر الثانى من شطرى الدراسة ، وهو العلوم الاجتماعية ، فقال :

« أما مقصودنا من تدريس العلوم الاجتماعية فالتطواف بمحضرات

(١٠ - محمد فريد وجدى)

الطلبة على جميع ما اكتشفته القرائح الإنسانية من النواميس العاملة على ترقية هذا النوع المكرم وما ينتاب تلك الترقية من أدوار وأعراض وأمراض، وما فتحه الله على العقول من علاجات ووسائل. ويدخل في هذا الباب درس الأمم من حيث علائقها بالأخلاق والأديان والشرائع الإلهية والوضعية والعادات والأساطير والحكومات والثروة. هذه المعارف العامة قسمها العلماء إلى علوم، وانقسم العلماء في كل منها إلى مذاهب؛ فوجد علم العمران، والتاريخ، والأمم، والطبائع، والسياسة، والاقتصاد، والشرائع. إلخ، وتولدت مذاهب الاشتراكيين والكمونستيين وغيرهم، مما لو خلا ذهن المتصدر لتهذيب الأمم وقيادتها، في هذا العصر من الإحاطة به جملة وتفصيلا، لحلا من ألزم ما يلزمه للقيام بوظيفته. فإن الأمم في عقائدها وعوائدها وحكوماتها وثروتها لا تسير كما يحىء، وإنما تسير مقودة بقوانين ثابتة اكتشفها العلم، فالإضراب عن تعلها ممن يدعى أنه قائم من قواد هذه الأمة يعد إضرابا عن وسائله في القيادة فلا يعجب بعد ذلك إن سقط اعتباره في نظر من هم تحت قيادته، وفيهم من هم أعلم منه بذلك.

وافتتحت هذه المدرسة وبدأت محاضراتها في منتصف عام ١٩٠٧،
فيما تقدر^(١)

ونستطيع أن نتمثل صورة من هذه المحاضرات فيما كان ينشر من خلاصاتها في مجلة « الحياة ». وكانت أولها، أو المحاضرة الافتتاحية،

(١) لم نستطع على وجه التحقيق أن نعين الشهر الذي بدأت فيه محاضرات هذه المدرسة، وكل ما بين أيدينا هو أنه جاء في التقديم لبروجرامها أن الدراسة بدأت فيها « في هذا الشهر » أى في الشهر الذي صدر فيه الجزء المادى مشر من مجلة الحياة.

ب عنوان : « نظرة عامة على العلم » ، تحدث فيها المحاضر عن تقسيم العلوم عند أرسطو ، ثم انتقل إلى الحديث عن آراء العلماء المحدثين في ترتيب العلوم ، كديكارت ، وباكون ، وألمبير ، وديديرو ، وأوجست كونت . وكأنما جعل هذه المحاضرة مقدمة لمحاضراته التالية التي كان يتحدث فيها عن هذه الموضوعات ، (كما نرى ذلك فيما كان ينشر من خلاصتها) :

علم طبائع الموجودات . رقد بدأه بالكلام عن ماهية المادة .

فلسفة الأخلاق .

فلسفة التشريع .

تاريخ المسلمين : عوا مل نهضتهم وانحطاطهم ؛ وكيفية معالجة دائهم . ويبدو أن هذه المدرسة وجدت إقبالا غير قليل على محاضراتها من طلاب الأزهر . وكان محمد فريد وجدى أراد أن يجعل دروسها متاحة للجميع ؛ لا يحتاجون في متابعتها إلى إذن ؛ ولا يلتزمون بأى إجراء . ولكنه لم يلبث أن قيد الالتحاق بها ؛ فاشتراط لذلك بعض الشروط العلمية والتنظيمية ؛ ونشر بذلك بيانا في جريدته الدستور ، قال فيه .

« . . . وقد توخينا أن نجعل الدخول إليها بلا استئذان تعميماً للفائدة ولكننا رأينا بالاختيار أن بعض الذين يحضرون تلك الدروس غير كفء لتلقى هذه العلوم العالية التي لاتليق إلا بالمنتهم في العلوم الشرعية ، فافترضنا الحال أن يحصر عدد طلبتها في طائفة صالحة للتلقى ، ممن يكونون بلغوا درجة عالية في العلوم الشرعية ، تؤهلهم لفهم أسرار الاجتماع ، ودقائق المسائل الفلسفية ، وأن نرسى على حضراتهم نظاما مدرسيا ، كأن يحضروا في مواعيد معينة ، وألا ينقطعوا عن الدراسة بلا عذر ، وأن يسألوا فيما يتلقونه كل ثلاثة أشهر ، حرصاً على أن يكونوا حاصلين على ما يؤهلهم للوظيفة السامية التي نستدبهم لها .

فعلى كل من يرغب فى حضور هذا الدرس أن يثبت لنا كفاءته العلمية بشهادة يحضرها تدلنا على أنه يدرس الكتب العالية، وعلى وشك الحصول على شهادة العالمية، وإلا فلنا واسع العذر فى عدم قبول كل طلب يقدم إلينا غير حاصل على هذا الشرط. وإنا لانفعل هذا التقييد تضيقاً لدائرة التعليم، ولكن لما ثبت لنا بالاختبار أن عدداً صغيراً من الحائزين على هذه الشروط المتقدمة يغنيا عن ذلك الجمل الغفير، فمن يحضرون درساً وينقطعون درساً آخر، .

وكما لم نعرف على التحقيق متى بدأت «مدرسة العلوم العالية» دروسها، فإننا لانعرف على اليقين متى انتهت. كل مانع له أنها ظلت مفتوحة تستقبل الطلاب طوال الوقت الذى كان الدستور ينشر فيه ذلك البيان عنها، أى أنها ظلت مفتوحة — على الأقل — إلى آخر شهر يونية سنة ١٩٠٨ .

وبعد، فهما يكن من أمر هذه المدرسة، وما لقيته من سخرية بعض الآخرين الذين جعلوا يتكلمون بها، ويعجبون الناس من مدرسة تسمى مدرسة العلوم العالية تقوم فى إحدى حجرات المدرسة التحضيرية، ويقوم بالمحاضرة فى مختلف موضوعاتها رجل واحد، فإنها تؤدى إلينا صورة من طموح ذلك الشاب الذى لم يكن بلغ الثلاثين، وثقته بنفسه، وإيمانه بالغاية التى ظلت ماثلة أمامه دائماً، يعمل لها، ويلتمس كل وسيلة لبلوغها، مستهيناً بكل جهد يبذل فى سبيلها، وقد كانت هذه المدرسة من وسائله، وما كان يعبأ بأن تكون فى بناء مشيد الأركان أو فى حجرة متواضعة، كما كان له فى الفلاسفة القدماء والشيوخ الأولين الذين كانوا يلقون دروسهم فى أى مكان. ويلقون طلابهم فى أى صورة، ويحملون عبء الدرس فى غير موضوع، مثال مائل تجاهه .

١٧

كان مما نشأ عن هذه المدرسة حادث عارض في حياة محمد فريد وجدى ،
لا بأس في أن نعرض له ، ونسبين شيئاً من عوامله وعناصره ، لأنه يمثل
على - أى حال - جزءاً ، مهما يكن ثانوياً ، في حياة الرجل ، كما يمكن
أن تكون له دلالاته على بعض ملامح شخصيته ، وعلى ما كان يداخل
بعض البيئات الفكرية في مصر من تيارات ونوازع .

ذلك هو أن هذه المدرسة كانت سبباً في إثارة شيء من الخصومة بين
محمد فريد وجدى ومحمد رشيد رضا ، واتخذت هذه الخصومة بعض
المظاهر اللافتة للنظر ، بالقياس إلى كل من الرجلين .

وكانت العلاقة بينهما في بدئها علاقة مودة وتقدير ، كما رأينا فيما ذكره
السيد محمد رشيد رضا عن « فريد بك » في رسالته إلى صديقه الشيخ عبد
القادر المغربي ، ثم في الفصل الذى كتبه عن كتابه « تطبيق الديانة
الإسلامية على نواميس المدنية » وجعله ثانياً « رسالة التوحيد » ، للاستاذ
الإمام الشيخ محمد عبده ، كما رأينا ذلك أيضاً فى الكتاب الذى كتبه فريد
وجدى إليه ، حين أزمع إصدار كتابه ذلك ، وأراد أن يستعين به فى
توزيعه ، فإذا أصدر مجلة الحياة وجدنا العدد الأول منها مطبوعاً - طبعته
الأولى - فى مطبعة المنار .

ولكن يبدو أن هذه العلاقة لم تلبث أن تراخت ، كما تعرضت مودة
بينهما لما شابها . والأصل فى هذا - فيما نحسب - أن الرجلين كانا مختلفين
إلى حد بعيد طبيعة ومزاجاً وكياناً عقلياً ، كما كانا مختلفان كذلك مبدأ
وأسلوباً فى الحياة .

ولعل من أول ما أبرز الخلاف بينهما ، فنكر صورة رشيد رضا فى

نفس ذلك الشاب المثالي الممتلئ بحماسة ووطنية موقفه في مجلة (المنار) من الدعوات السياسية الوطنية التي تناهض العناصر الإنجليزية المحتلة . فقد كان من سياسته مسأيرتهم والتلطف معهم وتجنب الهجوم عليهم ، فكان ذلك مما وضعه عند دعاة الوطنية ، في صف أصحاب المقطم ، وكان هو يحاول أن يصرف هذه الخصومة بينه وبين ممثلي الوطنية المصرية - كجريدة اللواء مثلاً - إلى الخلاف بين الوطنية الإقليمية والإسلامية الشاملة ، فالأمر بين المنار واللواء هو أن اللواء وطني متعصب ، لا يرى غير مصر ، ولا يرى سواها ، في حين أن المنار ينظر إلى العالم الإسلامي جميعاً ، كما جاء في أحد أعداده ، تحت عنوان : « المنار الإسلامي واللواء الوطني » :

« بين المنار الإسلامي وجريدة اللواء الوطنية تضاد فيما يسمونه المبدأ ، فالمنار يدعو إلى الإصلاح الإسلامي ، ويثبت أن المسلمين لا يرتقون إلا بترك البدع ، ورجوعهم في الدين إلى ما كان عليه السلف ، يأخذهم بوسائل القوة والمدنية العصرية ، في أمر الدنيا . ويدخل في الأول أن كل مسلم ، أخ لكل مسلم ، وفي الثاني أن أهل كل قطر من الأقطار ينبغي لهم التعاون على عمرانه ، لا يفرق بينهم في ذلك دين ولا مذهب . وجريدة اللواء لا رأى لها في الدين والإصلاح يسقطها ، ولكن لها وطنية عياء ، من معناها أنه يجب على كل مصري أن يتعصب على كل من يقيم في مصر ، من غير أهلها الأقدمين ، وإن كان مسلماً ، وعلى كل مصري مسلم أن يتعصب على كل مصري ليس بمسلم . وهذا مما ينقضه المنار . ولذلك نرى جريدة اللواء تقدر في المنار ، وقلما نطلع على شيء من طعنها » (١) .

فالخلاف إذن بين « اللواء » التي كانت تعبر عن الروح الوطنية ، والتي كان فريد وجدي من أشياعها ، وبين « المنار » التي كانت تناهض هذه الروح ،

(١) مجلة المنار ، المجلد الثامن ، الجزء الثاني عشر (١٧ أغسطس سنة ١٩٠٥) .

كان خلافا واضحا صريحا ، وإن وجهه المنار بأنه يرجع إلى التعصب المصرى الأعمى على كل من ليس بمصرى . والأمر - على كل حال - موضع نظر ، وليس هذا مجال تحقيقه . وإنما نحن فى تلمس الأسباب التى باعدت بين محمد فريد وجدى ومحمد رشيد رضا ، حتى انتهت إلى القطيعة ، ثم ذهبت إلى المجاهرة بالخصومة ، بعد إنشاء هذه المدرسة ، وإلقاء أولى المحاضرات بها .

فلم يكده محمد فريد وجدى يلقى أولى محاضراته فى « فلسفة التشريع » ، وينشر خلاصتها فى جريدة المؤيد ، ثم فى مجلة الحياة ، حتى انبرى له السيد محمد رشيد رضا فى مجلته « المنار » ناقداً هذه المحاضرة . وبدأ بذلك حملة أراد أن تكون عنيفة موجهة ، لم تقف عند حد هذه المحاضرة فى فلسفة التشريع ، بل تجاوزتها إلى غيرها ، وافتتحها بالحديث عن « مدرسة العلوم العالية » فى أسلوب بشى بشى من السخرية والتهكم ، إذ يقول :

« كتب محمد فريد أفندى وجدى ، صاحب مجلة الحياة ، منذ أشهر مقالة فى بعض الجرائد اليومية ، قال فيها إنه سينشئ مدرسة يدرس فيها العلوم العليا من كونية واجتماعية وعمرانية ، ومن ذلك جميع العلوم الطبيعية والفلسفية بأنواعها الخ . أى أنه سيقوم وحده بما تريد لجنة الجامعة المصرية أن تبدأ به ، وترى أن مالهيا من مال الاكتاب ، وهو عشرات الألوف من الجنيهات ، وما وقف على الجامعة من الأطنان ، غير كاف للشروع فى هذا القسم العالى ، ولكن فريد أفندى وجدى سخي بالوعود . وقد تبرع له سيد أفندى محمد ، صاحب المدرسة التحضيرية ، بحجرة وفى بها وعده . فهذه الحجرة هى مدرسة العلوم العليا . وقد شرع فريد أفندى فى إلقاء الدروس فيها . ونشر الدرس الأول من علم فلسفة التشريع فى جريدة المؤيد ، ثم مجلته . فتذكرنا بقراءته تلك المقالات

التي كان يفتشها في المؤيد عن الإسلام إذ جاء فيه بمثل ما جاء فيها من أمور تعزى إلى الإسلام وهو لا يعرفها ، وفلسفة فيه لا يرضاها . وكان خطر لنا أن ننقد تلك المقالات ، قياماً بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولكن عرض لنا أمور أثنت عزمنا عن ذلك . منها الرغبة عن انتقاد فريد أفندى لذاته ، ولأنه صاحب مجلة ، ولا نحب أن يكون بين أصحاب المجلات مثل ما بين أصحاب الجرائد من المناقشات التي لا يؤمن أن تكون من قبيل المراء والمشاغبة . تركنا الرد على ما جاء في تلك المقالات من مخالفة أصول الدين ، والنفس تحاسبنا على ما فرطنا ، ونعتذر عن تفريطها بأن تتبع خطأ الناس والرد عليه غاية لا تدرك ، ولا يستطيع القيام بها واحد ، وهو من فروض الكفايات . ولكنها ليست مطمئنة بأن هذا العذر يرضى الله تعالى ، مع ما ترى من سكوت العلماء في هذا العصر عن إنكار المنكر . ثم عرض لنا مثل هذا عندما قرأنا درس فلسفة التشريع ، وأن كان الخطأ فيه دون الخطأ في تلك . ثم جزمنا بأن الانتقاد واجب علينا ، فبادرنا إلى كتابة هذا النقد فعمى أن ينظر فيه رصيفنا فريد أفندى بعين الإنصاف»^(١).

ولا ريب أن هذه اللهجة الساخرة المتعالية أثارت محمد فريد وجدى كما أثاره التعريض المسف بالمدرسة التي كان يعتز بدروسه فيها ، والظعن في مقالاته التي كان يدل بها ، عن الإسلام ، ودعوى أنه نحل الإسلام ما ليس فيه ، وحمل عليه ما لا يعرفه ، إلى غير ذلك مما يرجع في بعضه إلى الاختلاف الشديد في التكوين العلي والمنهج الفكري . ولم يكن ليدع الرد عليه ومناقشته ، فرد عليه بأربع مقالات نشرها في جريدة اللواء ، وأشار إليها في الجزء الأول من المجلد الرابع من مجلة الحياة قائلاً :

«كان لمجلة المنار بعض الاعتبار في حياة العلامة الشيخ محمد عبده ،

(١) مجلة المنار ، المجلد العاشر ، الجزء الخامس (يولية سنة ١٩٠٧) ، ص ٣٧٥ .

رحمه الله ، لتوهم الناس أنه يطلع على ما فيها قبل الطبع ، وينقحها . فلما توفى ، رضى الله عنه ، ذهب ذلك الشيء من الاعتبار عن تلك المجلة . فتخيل الشيخ رشيد ، لما أحس لجريدته السقوط أنه يسترجع لها ما كان لها في قلوب بعض الناس بالطعن على العاملين ، فانتقد على الدرس الأول من فلسفة التشريع ، فرددنا عليه في أربع مقالات نشرناها في جريدة اللواء ، ووعدناه بالمزيد إن عاد للكلام فيما لا يعرفه ولا يعنيه .

ولم يكن السيد رشيد رضا ليدع أيضاً هذه المقالات دون أن ينشئ بها ، ويتخذها ذريعة للمضى في الحملة التي أراد أن يلج فيها ، فجعلها موضوع مقالته التي نشرها في الجزء التالي من المنار ، في نحو خمس وعشرين صفحة ، لم يقف فيها عند حدود المسائل التي أثارها في محاضرة فلسفة التشريع ، ومادار حولها من جدال ، وإنما تجاوزها إلى أحد كتب محمد فريد وجدى ، وهو كتاب « كنز العلوم واللغة » ، وكان قد صدر في ذلك العام . فنقد بعض مواده . واندرأ عليه بالطعن جملة ، قائلاً إنه صورة من صور الادعاء ، وأن « فريد أفندى قد ارتكب بهذا الكتاب أنواعاً من المنكرات تزيد على أنواع العلوم التي ادعاها » . ثم جعل يعد من هذه المنكرات ، بما خطر على باله إذ ذاك ، كما يقول ، دون استقصاء : القول في الدين بغير علم ، وهو من أصول الكبار ، والكذب ، وناهيك به وبما ورد فيه ، وإخلاف الوعود وعدم الوفاء بالعهود والعقود ، وعدم الأمانة في نقل العلم ، وأكل أموال الناس بالباطل ، والغش في المعاملة . وفي العلم والدين ، والتخريب ، والتشيع بما لم يعط ، والدعوى العريضة .

كما عاد في هذه المقالة إلى « مدرسة العلوم العالية » ، فادعى أن فريد وجدى إنما أراد بها أن تكون حيلة لاصطياد الأموال ، كما كان بعض أمره في كتاب « كنز العلوم واللغة » ، إذ زعم أن بعض الناس نقلوا عنه : « أنه ما ادعى إنشاء مدرسة عالية إسلامية ، تدرس فيها جميع العلوم

العالية ، مع تطبيقها على الدين ، إلا لأجل تحويل أريحية الأغنياء عن الجامعة المصرية إليه هو ، لأن مدرسته تحتوى (بحسب دعواه) على جميع العلوم التى تنشأ الجامعة لأجلها ، وتزيد عليها علوم الدين ، فإذا حوات إليها التبرعات والأوقاف كانت أولى بها وأجدر ثم زاد على ذلك أنه يقال إنه تعجب بعد أن مر على كتابة تلك المقالة بشأن المدرسة العليا في المؤيد واللواء شهران ، ولم تنهل عليه الجنيهاات ، وتكتب لمدرسته الوقفيات .

وكذلك عاد في هذه المقالة إلى ترديد القول بأن هذا الرجل الذى يدعى القيام بتدريس موضوعات هذه المدرسة هو « فريداً فندى وجدى الذى لم يبرع فى العلوم الأولى ، فيرتقى إلى الوسطى ، كما يدل على ذلك سقوطه فى امتحان شهادة البكالوريا التى ينالها الجمل الغفير من الأحداث كل سنة » .

لاريب أن هذا الإسفاف فى اتهام محمد فريد وجدى فى أعز ما يعتز به ، ويحرص عليه ، وهو النزاهة وطهارة الضمير والكفاية العلمية ، قد أثاره ، إلى الحد الذى لم يملك معه نفسه ، فور وروده عليه مع ذلك الجزء من المنار ، حتى أخذ فى كتابة رد عليه استغرق ملزمة كاملة من ملازم مجلته الحياة ، بأسلوب لم يعرف به من قبل ، إذ جعل يتناول السيد رشيد رضا فى شخصه ، ويدكر مثالبه — عنده — ومواقفه ، فى مثل قوله ، موجهها الكلام إليه : « تظن أيها المسكين أنك تسقط من كرامتى بمناقشات لفظية ، وقد قبعت قبوع القنفذ حين دعا الإسلام ابنائه لنصرته أيام تقرير اللورد كرومر . ولم يكفك السكوت وإقرارك بالعجز ، حتى قت تؤول كلامه تأويلاً ثقيلاً . ثم حقدت على ذلك الصوت الذى ارتفع فى نصرته الإسلام ، فأليت على نفسك أن تسكته . . . أتريد أن أضرب لك مثلاً يريك كيف كنت حين جئنت عن تقرير اللورد كرومر ؟ كنت كالجندي تطوع فى

الجيش ، وأخذ أجره في السلم وافيًا ، فلما انتشب القتال نكص على عقبيه ، وحرص الناس على النكوص ، وعده من ضروب الكياسة والمهارة . هذه الفعلة تسقط أمة برمتها ، فكيف لا تسقط رجلا مثلك .

في مثل هذا الأسلوب جاءت كلمة فريد وجدى في الرد على رشيد رضا . وهو أسلوب لم نعهده عنده من قبل . إذ كان - فيما نعلم عنه - حريصاً على أن يكتب عواطفه ، ويقمع نوازعه الشخصية في المناقشة والنقد ، ولكن الزمام أفلت منه هذه المرة ، فكان هذا الرد الذى ذيل به ذلك الجزء من الحياة .

ولسكنه لم يلبث أن عاد إلى نفسه ، وراجع ما كان التزمه من الترفع عن مثل ذلك الأسلوب ، فكتب في الجزء التالى كلمة قصيرة ، يرجو فيها القراء ألا يعتبروا الصحف التى نشر فيها ذلك الرد جزءاً من المجلة ، قائلاً فى ذلك : « وبما أن هذه أول مرة قابلنا فيها الإساءة بمثلها ، فيجب ألا نحفظ هذه الملزمة فى مؤلفاتنا ، ونرجو من حضرات القراء رفعها منها ، إذ ليست من حقهم ، وقد جعلنا نمر المجلة تابعة للملزمة التى قبلها ، فنصبح لالنا ولا علينا . هداانا الله لخير الأقوال والأعمال ، وحفظنا من زلات الألسنة والأقلام ، إنه سميع الدعاء » .

واستمر السيد محمد رشيد رضا فى حملة النقد التى شنها على محمد فريد وجدى ، فقد ظل يتابعها فى جزأين تاليتين للجزأين السابقين ، حين كان فريد وجدى منصرفاً للأعداد لإصدار جريدة الدستور .

١٨

في الفصل السابق الذي تحدثنا فيه عن المعركة التي نشبت بين محمد رشيد رضا ومحمد فريد وجدى جاءت الإشارة إلى كتاب « كنز العلوم واللغة » ، ومقالات فريد وجدى في الرد على اللورد كرومر ، وبنا الآن أن نتحدث عن كل من هذين الأثرين .

أما « كنز العلوم واللغة » فهو — كما وصف في صدره — « دائرة معارف عامة ، تحتوي على فصيح اللغة العربية ، وخلاصات العلوم العقلية والنقلية والطبيعية والتاريخية والعمرانية ، وتراجم المشاهير . وفيها من الفوائد الطبية والعلاجية ، والوسائل الحيوية ، ما يحتاج إليه الإنسان في سائر أحواله المعيشية » .

ولعلنا لاحظنا خلال هذه الدراسة ، صلة محمد فريد وجدى ، منذ أول حياته العلمية ، بدوائر المعارف الأوروبية ، كدائرة المعارف الكبرى ، ودائرة معارف القرن التاسع عشر ، ودائرة معارف لاروس ، إذ كان ما يزال يذكرها وينقل عنها . وقد وجد فيها ما يشبع نهمه العلمي ، ويستجيب استجابة سريعة يسيرة لتطلعه إلى المعرفة في شتى نواحيها .

ولا ريب عندنا في أن هذا الأسلوب من جمع المعارف الإنسانية وتصنيفها قد استهواه ، حتى ودلو استطاع أن يصنع نظيره في اللغة العربية ، بما يناسب حاجات المثقفين عندنا ، فيؤلف دائرة معارف عربية ، في مجلد واحد ، على نمط لاروس الصغير .

وليس يبعد عندنا أن يكون قد رأى دائرة المعارف التي كان يصدرها المعلم بطرس البستاني ، ثم أخوه نجيب البستاني ، وابنه سليم من بعده . ولكن دائرة معارف البستاني ، هذه ، وإن اتفقت في المنهج ونمط التأليف مع دوائر المعارف الأوروبية المرتبة على الحروف الهجائية ، كانت في أكبر الظن — شيئاً مختلفاً عما كان يتجه إليه في ذلك الوقت ، فقد كان يريد أن يضع قاموساً قريب المأخذ ، سهل التناول ، يستطيع الباحث

المعجل والرجل العادى أن يرجعاً إليه فى سر . أما دائرة معارف البستانى فقد توسعت فى النقل من هنا وهنا ، وكتبت أكثر موادها فى فصول ضافية ، حتى إن مجلداتها السبعة الأولى لم تتجاوز — على ضخامتها — مواد حرف السين ، بل لم تستكمل مواد هذا الحرف . هذا إلى أن كثيراً من هذه المواد بعيد عن حاجة جمهرة القراء والمتأدين وعامة الباحثين .

وهكذا اتجه محمد فريد ونجدى إلى وضع هذا الكتاب ، وقد أراد ، تسيراً لتناوله والإفادة منه لعامة القراء والمثقفين ، أن يكون فى مجلد واحد ، وألا تقتصر مواد على العلوم التقليدية والمعارف النظرية ، كعلوم الدين والعربية ، والعلوم التاريخية والجغرافية والفلسفية ، وما إليها من علوم الفلك والطبيعة والكيمياء ، وإنما أراد أن يحقق به ، إلى جانب ما كان العلم يطلب له بهذه المعارف ، من محض السكال العقلى أو الإبداع العلمى ، من بعض من تسمو بهم فطرتهم لطلبه اختياراً ، ما أصبح من وظيفة العلم فى هذا العصر ، إذ أصبح « يطلب اضطراراً ، سلاحاً للحياة وعدة للبقاء ، وآلة لتخفيف وقع التوازل ، وحفظاً لمحاولات المجهودات الإنسانية من الآفات الممتابة » كما يقول فى مقدمته .

ومن ذلك عنى بأن يتضمن هذا المعجم « من الفوائد الطبية والعلاجية والوسائل الحيوية ما يحتاج إليه الإنسان فى سائر أحواله المعيشية » ، كما يذكر فيما أثبتته تحت عنوان الكتاب صفة له ، وكما نرى ذلك فى المقدمة التى سرد فيها مواد ، فذكر منها « العلوم الطبية والصحية والأقرباذينية والفوائد المنزلية » .

ويبدو أنه بدأ فى طبع هذا الكتاب بعد انتقاله إلى القاهرة وإستقراره بها ، كما يدل على ذلك تاريخ الطبع المثبت فى أولى صفحاته ، وهو (١٣٢٣ هـ — ١٩٠٥ م) ، ويعنى ذلك أنه بدى بطبعه فيما بين

١٩

وأما الرد على كرومر ، وهو الذى أشار إليه محمد فريد وجدى فى ذلك الفصل الذى كتبه رداً على السيد رشيد رضا ، فهو أحد وجوه نشاطه فى هذه الفترة من حياته ، قبل إصدار الدستور .

وكان اللورد كرومر قد تعود ، منذ خلف السير ادورد مالت فى منصب المعتمد البريطانى ، سنة ١٨٨٤ ، أن يكتب تقريراً سنوياً عن حالة البلاد السياسية والمالية والإدارية . وكان له من إقامته الطويلة فى مصر ، منذ سنة ١٨٧٧ ، حين عين ممثلاً للجانب الإنجليزى فى صندوق الدين ، ما جعل تقاريره ذات شأن عند الحكومة الإنجليزية . حتى إذا كان الاتفاق الودى ، سنة ١٩٠٤ ، الذى أطلق يد الإنجليز فى مصر ، ومكن اللورد كرومر من السيطرة على البلاد ، فقد ارتفع شأن هذه التقارير وعظم خطرهما ، وبحيث صارت من أهم الوثائق عن أحوال مصر السياسية والاجتماعية والإدارية ، وصار لها من الشأن ما لتقارير حكام المستعمرات الإنجليزية ، وكان يخوض فيها فى كل ماله مساس بشئون الحكومة المصرية والبلاد ، مما لا يصدر إلا عن صاحب السيطرة والنفوذ الفعال فى الحكومة ، كما يقول الأستاذ عبد الرحمن الرافعى .

كما أصبح مسلكه فى البلاد مسلك الحاكم المطلق ، وتصرفاته تصرفات صاحب السلطان المستبد الذى لا معقب عليه ، ولا شأن معه لأحد غيره . فكان ذلك مما ضاعف من سخط الوطنيين عليه ، وقوى من الشعور الوطنى المنبعث من جريدة اللواء والمؤيد وغيرهما ، والمنبث فى أنحاء البلاد . وكان ذلك مما يضيق به اللورد كرومر أشد الضيق . حتى إذا كانت حادثة دنشواى ، سنة ١٩٠٦ ، فقد تفجرت الحركة الوطنية ، وأحاطت الصيحات

المختلفة باللورد كرومر ، تأخذه من هنا وهنا . ولم يغن عنه شيئاً دهاؤه ولا كياسته وحزمه ، إلى آخر الصفات التي كانت تنسب إليه - ولم يعد بد - من أجل مصلحة السياسة الانجليزية في مصر - من أن يعتزل منصبه ، فما إن عاد إلى مصر من إجازته ، في أواخر سنة ١٩٠٦ ، حتى عكف على كتابة تقريره السنوى ، وهو يقدر أنه آخر تقرير يكتبه ، فلا بد أن يؤدي فيه أمانة منصبه الذى يوشك أن يتركه ويسلمه إلى غيره ، حتى إذا تم قدمه وقدم استقالته معاً . فكان من أجل ذلك يعد من أخطر التقارير التى قدمها ، فى جميع النواحي التى تناولها فيه ، سياسية واجتماعية ودينية ، وأشدّها إثارة للسخط .

وقد قال عنه السيد محمد رشيد رضا ، فى فصل كتبه بعنوان : « استقالة اللورد كرومر وتقريره » ، تحدث فيه عن اللورد كرومر بمناسبة استقالته التى كان يعزوها لمرض خطير اشتد عليه ، ووصفه فيه بأنه « بما عمل فى مصر يعد من أعظم السياسيين فى هذا العصر ، وقد اعترف له الوطنيون مع الأجانب بالنزاهة التامة ، وترقية مالية البلاد وتكثير مواردها ، واحترام استقلال القضاء والحرية الشخصية فيها ، وناهيك بحرية المطبوعات » ، وكان مما قال عن تقريره :

« وهذا التقرير هو أشد التقارير وطأة على الوطنيين ، لاسيما الذين يعرفون بالحزب الوطنى ، من حيث ما يراد فيه من تغيير الجنسية المصرية ، ومحاولة اقناع دول أوروبا بترك الامتيازات ، والاستغناء عنها بمجلس تشريع وطنى ، معظم أعضائه من رعايا هذه الدول . وبما نقل عن التقرير ، فكان شديد الوقع على نفوس المسلمين ، كلام فى الشريعة الاسلامية ، فجواه أنها لا تصلح لهذا الزمان ، وكلام فيما يسمونه الجامعة الاسلامية ، وكلام عن مستر دقلوب فى اللغة العربية » (١) .

(١) مجلة المنار ، الجزء الثانى من المجلد العاشر .

كان طبيعياً وهذا شأن ذلك التقرير ، وما أثاره في أوساط الوطنيين -
أن يقتدب رجل مثل محمد فريد وجدى ، وضع نفسه فى موضع الدفاع
عن القيم الدينية والمبادئ الإسلامية لمناقشة ما جاء فيه من هذه الناحية ،
وكذلك جاء هذا الرد الذى يشير إليه فيما كتبه رداً على السيد محمد رشيد
رضا ، والذى نشر فى جريدة اللواء وكان تقديمه إليها مناسبة للقاء الأول
بينه وبين الزعيم مصطفى كامل .

ويحسن أن نورد هنا بعض ما كتبه فريد وجدى عن ذلك ، فى إحدى
مقالاته التى كتبها عن مصطفى كامل ، عقب وفاته . قال :

« صدر تقرير اللورد كرومر عن سنة ١٩٠٦ ، وفيه كلام على الجامعة
الإسلامية ، فتناول الدين الإسلامى ، لهذه المناسبة ، بالمطاعن التى
عليها قراء العربية . فأسرع مصطفى كامل بنقل هذه المطاعن ، ولإبداء
الاستياء منها ، وصاح صيحاته المأثورة عنه ، فاندفعت لتقوية صوته ،
وعملت لذلك رسالة ذات أربعة فصول ، يصلح كل فصل منها أن يكون
مقالة قائمة بذاتها ، حاكت فيها أقوال اللورد على العلم والفلسفة محاكاة
دقيقة ، وصدرتها بمقدمة أوحى إلى نفس مطمئنة بحقيقتها ، معتمدة على
قوة حججها ، وارسلتها إليه بخطاب رجوته فيه أن يأمر بترجمتها إلى اللغة
الانجليزية ، ليطلع عليها اللورد كرومر بنفسه . وأنا إلى ساعة تحرير ذلك
البحث لم أقابل مصطفى كامل ، ولا أعرفه لورأيته ، فما وقعت المقالة فى
يده حتى أرسل إلى خطاباً بالبريد ، لجهله بمكان يبنى ، يبشئ فيه من
الاشواق ما لا مزيد عليه ، ويقول إنه اشوق مصرى إلى مقابلتى ، وذهب
فى التلطف فى العبارة ماشاء ، فلم يسعنى ، بعد تلاوة ذلك الخط
الكریم ، إلا أن يعمت لإدارد اللواء ، فدخلت عليه ، فوجدته مع جماعة
من الفضلاء ..

جالس هو على مكتبه وجلست بجانبه . وانتدب القوم الذين معنا مكانا
من الحجرة . وأخذوا فى شأنهم . ففطق صاحبى يكلمنى فى أمر الرد .

ويظهر لى أنه مسرور جدا من مبادرتى بنصرة الدين ، وكبت خصومه الملحدين ، وأطنب فى ذلك ماشاء . ثم قال لى :

هذا كله حسن . ولكننى أرى فى مقدمتك لينا فى اللهجة ، لا يصح أن تكون عليه مقدمة رد مطاعن على الإسلام ، وجهها إليه رجل من غير أبنائه ، لاهم له إلا جرح عواطف المسلمين وتسوى سمعتهم .

فقلت له : أليس إلا أنه القول مع قوة الحجة خير من الشدة التى ربما نفرته من قراءة البحث كله ، فيفوتنى الغرض من كتابته ؟ وهذا فرعون موسى الذى افتات على الله وادعى الألوهية أمر الله موسى عندما أرسله إليه أن يقول له قولا لينا ، لعله يتذكر أو يخشى . وأمرنا الله بذلك نصا فقال : ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن .

وما الذى يضرنى لو ألت له المقدمة استدراجا ، حتى إذا تورط معى فى البحث ، وأنست روحه منى قصد الحقيقة ، أطمأن إلى الموضوع واشربه قلبه .

فقال : كلا ! انك لم تلن له القول فقط ، بل عذرتة فيما قال أيضا ، وقلت إن فى المسلمين أنفسهم من يقول مثل مقالة كرومر ، افتتاناً بالعلم الأوروبى ، وكفى بجملتك هذه مبرئا للرجل فى نظر أهل دولته . ولا يبعد عليه أن يقول فى تقرير السنة المقبلة فى تبرئة نفسه إنه معذور فيما ذهب إليه بدليل ما كتبه فلان فى جريدة اللواء ، ويسرد عبارتك بالنص ، فتكون قد أعطيته أكبر سلاح يدافع به عن نفسه .

فقلت له : كل هذا ممكن . ولكنى لا أنظر إلى هذه الاحتمالات مادام

موضوعى الذى أبحث فيه دينى ، ورب الدين يقول : ألبسوا القول للمخالفين ، ولا تخاشنوه عند دعوتهم إلى الإيمان .

قال : يا أخى نحن فى موضع يجب علينا فيه أن نبث فى الأمة روح الحمية والعبرة بالكتابات المؤثرة ، وهذه فرصة من أجل الفرص لذلك ، لا أن نقابلها ، وهى فى هذا الغليان الوجدانى ، بما يكسر نفوسها ، ويطمئن من إشرافها^(١) .

فى هذا الحوار الطريف تتمثل محمد فريد وجدى رجل علم يؤثر الأسلوب العلمى والهدوء الموضوعى ، ونراه رجل دين يصطنع الأدب الدينى فى مجادلة الخصم ، ويتجه بالرد والمناقشة إلى ضميره يطمع فى أن يستأنسه ويستميله . وكأنما يتجاهل - لغلبة الطابع العلمى عليه - أن اللورد كرومر رجل سياسة ، وأنه يتولى فى البلاد منصباً سياسياً ، فتقريره هو - بطبيعة الحال - تقرير سياسى ، يصدر فيه عن وجهة النظر السياسية التى يراها ويقوم عليها . والأمور الدينية التى عرض لها فى هذا التقرير إنما يعرض لها من وجهة النظر السياسية . وأن السياسة الاستعمارية مازالت تحاول - فى سبيل التمكين للاستعمار - إهدار القيم الإسلامية بكل وسيلة فما جاء فى هذا التقرير عن الإسلام ، هو فى حقيقته ، صورة من صور هذه السياسة . وتلك كانت نظرة مصطفى كامل ، فهو لا يستطيع - باعتباره رجل سياسة ، أن يغفل المعنى السياسى فيه ، والهدف الاستعمارى الذى يقصد إليه .

ولكن محمد فريد وجدى كان لا يزال ، حتى ذلك الوقت ، بعيداً عن السياسة ، مصراً على الوقوف عند حدود ما اختاره وتوفر عليه ، وهو

(١) جريدة الدستور ، غدد ١٦ فبراير سنة ١٩٠٨ .

الدراسة الدينية والعلمية والاجتماعية ، ولذلك اقتصر من التقرير على ما يمس الناحية الدينية ، كما التزم أن يصطنع في مناقشته والرد عليه أسلوباً علمياً موضوعياً ، بعيداً عن خطايات السياسة وحماستها وإثارتها . وكان التزامه هذا الأسلوب موضوع ذلك الحوار الذي رأيناه بينه وبين مصطفى كامل .

وقد عبر في مستهل رده عما كان لا يزال ملتزماً به من تجنب المناقشات السياسية ، في الجرائد على الأقل ، والاقتصار فيما يكتب على مسائل الدين وما إليه ، فقال :

« صدر تقرير جناب اللورد كرومر ، على جارى عادته السنوية . وما كان موقفى بإزائه إلا كموقف كل مصرى لم يشتغل بالمناقشات السياسية فى الجرائد ، لولا أنه فى هذه السنة استطرد إلى ذكر الإسلام وأصدر على مبادئه حكماً كنا نود إلا يستدعى ملاحظتنا عليه ، لاسيما وأن إقامة جنازه بين ظهرائنا أكثر عشرين سنة ، واختلاطه بكثير من المسلمين ، كانا يكفيان لأن يتكون لديه عن مبادئ ديننا علم يتفق مع الحقيقة الفلسفية والتاريخية ، ويكون مشكاة لغيره من الإنجليز ، بهتدون بها فى حكمهم على أحيى الأديان فى هذا العصر ، وهى الديانة الإسلامية . وأنا لما كانت وظيفتى فى الهيئة الاجتماعية تحتم على ألا أهمل أمثال هذه الأحكام على المبادئ الإسلامية التى وقفت قلمي للدفاع عنها ، لاسيما أن صدرت من رجل كبير ، يتخذ قوم رأيه فيها حجة ، فقد حق على أن أبعث إلى اللواء بكلمات فى هذا المبحث ، راجياً ترجمته فى الإيجيشيان ستندرد ، ليطلع عليه جناب اللورد وسائر الإنجليز الذين لهم علاقة بالمسلمين ، ليكونوا على بينة من أمر هذا الدين الكريم ومراميه السامية ، وليكون حكمهم عليه فى المستقبل أقرب إلى الحقيقة والعدالة من جميع الوجوه . »

ثم أخذ بعد ذلك فى بيان المواضع التى يريد أن يناقشها وبين وجه الحق فيها . من تقرير اللورد كرومر فقال :

« يقول اللورد فى عرض كلامه على مسألة الجامعة الإسلامية : إن الساعين لارجاع مجد الإسلام يحاولون أن يحيوا فى القرن العشرين المبادئ التى تكونت قبل أكثر من ألف سنة لقيادة أمة بدرية على حالة الفطرة . ثم ذكر أن من تلك المبادئ ما يخالف الفكر العصرى ويناقضه مثل إباحة الاسترقاق، وما جاء فيه عن العلاقات بين الذكر والأنثى ، ولا سيما — وهو الأمر الخطير الأهمية ، كما يقول — اجتماع الأصول المدنية والجنائية والدينية فى قانون واحد ، (يعنى كتاب الإسلام) . ثم ختم تلك الجملة بقوله : إن هذا هو السبب فى انحطاط الأمم فى كل بقعة ساد فيها الإسلام » .

فأسائل التى جعلها محمد فريد وجدى موضوع مناقشته هى : دعوى عدم ملاءمة الإسلام للحياة فى أطوارها الأخيرة ، ومسألة الاسترقاق ، ومسألة المرأة من حيث الطلاق وتعدد الزوجات ، ومسألة اجتماع الأصول المدنية والجنائية والدينية فى قانون واحد .

وقد ناقش المسألة الأولى فى المقال الأول والثانى ، وناقش مسألتى الاسترقاق والمرأة فى المقال الثالث ، وخص المقال الرابع بمسألة جمع القرآن بين القوانين الدينية والمدنية والجنائية .

ولم تكن هذه المطاعن التى وجهها اللورد كرومر إلى الإسلام جديدة وإنما هو يردد ما أدب المبشرون على قوله وترديده ، وأثار حمية كثير من العلماء لمناقشته والرد عليه .

ومن ذلك مسألة الاسترقاق التى غرى السكردينال لافيجرى ، مؤسس طائفة الآباء البيض بالشمال الأفريقى ، يرفع عقيرته بها ، واتخاذ الحديث

عنها وسيلة إلى الاقتراء على الإسلام وتشويه صورته ، كما نرى شيئاً من ذلك فيما يذكره أحمد شفيق ، في فاتحة كتابه « الرق في الإسلام » ، إذ يقول :

« اتفق لي . في أول يوليو سنة ١٨٨٨ ، أن حضرت بكنيسة سان سولبيس في مدينة باريس ، وسمعت نياقة الكردينال لافيجرى ، وهو يخطب على أهل تلك المدينة ، ويصف فظائع النخاسة بأفريقية الوسطى ، ويسوق لهم الحديث عن الاسترقاق وبشاعته في البلاد الإسلامية . ولم يكتف نياقته بإدانة المتدينين بالدين المحمدي بهذا بل نسب قبائحة إلى نصوص الشريعة التي جاء بها النبي عليه الصلاة والسلام . »

وكذلك فيما نقله عن إحدى الصحف البلجيكية ، وهي تتحدث عن إحدى خطب ذلك الكردينال في بروكسل ، فتقول أنه « لم يقدر على الامتناع عن المجاهرة بأن المسلمين يرون بأن أصطياد الرقيق حق لهم يكاد يكون واجبا عليهم . وهو حق لهم لأنهم يعتقدون ويقولون بأن الأسود ليس من العائلة البشرية ، وأنه متوسط بين الإنسان والحيوان ، بل إن بعضهم يرونه أدنى من الحيوان مقاما . »

وكان ذلك مما دعى أحمد شفيق إلى وضع ذلك الكتاب في الرد على هذه الدعاوى ؛ وبيان موقف الإسلام من الرق ، وقد ألقاه في الجمعية الجغرافية الخديوية ، في جلسات متوالية بدأت في ٢٨ نوفمبر سنة ١٨٩٠ وأثار كثيراً من المناقشات في هذه الجلسات ، وفي الصحف التي كانت تصدر في مصر بالفرنسية . وفي سنة ١٨٩٢ ترجمة إلى العربية أحمد زكي (مترجم مجلس النظر لإذذاك ، وأحد أعضاء الجمعية الجغرافية) .

وكذلك مسألة المرأة من ناحية لإباحة الإسلام الطلاق وتعدد الزوجات .

وكان رد فريد وجدى على هاتين المسألتين بتقرير الأصل في الإسلام وهو أنه « أنزل في الحين الذى اكتمل فيه عقل الإنسان ، ليكون ديناً عملياً ، لا شكلاً خيالياً يقدر تقديساً وهمياً . ولذلك روعيت فيه سائر الحكم العملية والأصول النفعية التى لا يستغنى الإنسان عنها ، فى كل أدواره وجميع تقلباته » ، وأنه « وفاء بإداء وظيفته العملية النفعية جاء شاملاً لكل الخصوصيات التى تجعله كذلك فلم يفاجئ الأمم بهدم عاداتها الاجتماعية ، بأوامر مبهمه غير قابلة للتطبيق ، بل راعى الحكمة التدريجية فى هدمها أو تعديلها . وما كانت أكبر قوة فى العالم تهدم فى أقل من ربع قرن — وهى المدة التى مكثها النبي صلى الله عليه وسلم بين العرب — ما اقتضته الوف السنين من العادات والشؤون . فكانت وظيفة الإسلام بإزائها وظيفة المربي الحكيم لا الجبار المستبد » وكانت سياسته « أمام كل شأن اجتماعى اقتضته القرون المتعاقبة ، وأرسلته العادة والألف ، أن يحصره فى دائرة محدودة ، ثم يسلط عليه من العوامل ما يصلح لأن يقاومه على توالى الأحقاب مقاومة تدريجية ، حتى يلاشيه أن أمكن » .

فمن هذا الأصل كان موقف الإسلام من الاسترقاق ، ومن الطلاق ؛ ومن تعدد الزوجات ، وعن هذا الأصل كانت القيود التى وضعها الإسلام على الاسترقاق ، والكرامة التى أحاط بها الرقيق ، والمناسبات التى يتاح له فيها العتق . وكذلك الأمر فيما يتعلق بتعدد الزوجات ، من تضيق دائرته بالنصوص المزهدة فيه ، « إلى أن تدخل الأمة فى دور من أحوال الاجتماع يعتبر فيه التعدد مناقضاً لعاداتها ومألوفاتها فيتلاشى » ، ثم يقول : « وأما حكمة لإباحته وعدم تحريمه بتاتا فهو جواز طروء حوادث اجتماعية تجعله من ضروريات الاجتماع ، كما حدث فى أوربا التى ظلت تشنع على الطلاق أكثر من ألف سنة ، فقضت عليها الحوادث بتقريره فى شرائعها وما يدرينا أنها تقبل مبدأ تعدد الزوجات فى يوم من الأيام . »

— ١٥٣ —

وفي هذه المقالة عرض للمنزلة التي أباحها الإسلام للمرأة، والحقوق التي فرضها . مما يمكن اعتباره استكمالا لكلامه عنها في كتابه « المرأة المسلمة » ، وتفصيلا لما لم يكن المقام يقتضيه هناك .

أما كلامه عن دعوى تخلف الإسلام عن الحياة فقد أفاض فيه في المقال الأول والثاني ، كما أفاض في المقال الرابع في فرق ما بين الإسلام والمسيحية من ناحية الجمع بين الدين والسياسة ، وبيان الملابس التي دعت أوروبا إلى محاربة هذا الأصل منذ القرن الثامن عشر ، مما لا مكان له في الإسلام الذي لا وجود فيه لطائفة ممتازة ولا لامتيازات كهنوتية . فلا مكان فيه لهذه المسألة التي تسمى : فصل ما بين الديانة والسياسة .

٢٠

هذه صورة من نشاط محمد فريد وجدى فى مدى سنتين ونصف سنة منذ جاء القاهرة . ولكن هذه الوجوه المختلفة من نشاطه فى التأليف والتدريس وتحرير مجلة الحياة وإدارتها وكتابه المقالات للصحف اليومية لم تكن - فيما يبدو - تستغرق جميع طاقته ، أو تحقق جميع مطالحه الأدبية التى ضاعفها وأمدّها بقوى جديدة انتقله إلى هذه المدينة الكبرى ، مركز النشاط الأدبى والعلمى والسياسى ، واتصاله اتصالا مباشرا بما تحفل به من تيارات مختلفة . فلا نلث أن نرى هذا النشاط يتمثل فى صورة جديدة ، وزاه يصطنع الصحافة فى أخص معانيها ، ويشارك فى السياسة فى شتى مناحيها ، إذ يصدر صحيفة يومية يشارك بها فى شئون السياسة المصرية ، وما يتصل بها .

وصلة محمد فريد وجدى بالصحافة اليومية صلة قديمة ، ترجع - كما رأينا من قبل - إلى أوائل عهده بالانتاج الفكرى ، منذ كان يصدر مجلة الحياة أول مرة ، وأحس أنها لا تكفيه فى التعبير عنه ، ولا تكفى طموحه الأدبى . فقد رأيناه يبعث بمقالاته إلى جريدة المؤيد ، وقد استفزته مقالاته هانوتو . وبعثت حماسه مقالات الأستاذ الأمام فى الرد عليهما ، كما اتخذ بعد ذلك من هذه الجريدة ميدانا يحول فيه قلبه ردا على قاسم أمين فى القضايا التى أثارها بكتابه تحرير المرأة ، فإذا ظهرت جريدة اللواء فقد جعلت مقالاته تتوالى فيها ، حتى عد من كتابها ، على الصورة التى أشرنا إليها من قبل .

ولكن مقالاته هذه كانت مقصورة على الناحية الدينية والاجتماعية وهى الناحية التى استغرقت واستبدت به ، قراءة ودراسة وتأملا ، فلم يلتفت فيها إلى السياسة ، بالرغم من إغرائها لشباب مثله ، متوئب الشباب

قوى الحساسية فوار العاطفة . ولعل الحياة المقصورة التي كان يحياها في السويس كانت من الأسباب التي قصرته على ذلك النوع من النشاط الفكرى ، ووسمت مشاركاته الصحفية بسمته ، وصرفته عن السياسة . وربما كان ارتباطه الوثيق في هذه المرحلة ، بأسرته ، وكون أبيه يشغل منصبا إداريا حكوميا ، يمنع من أى مشاركة سياسية ، من أسباب هذا الانصراف عن السياسة .

حتى إذا انتقل إلى القاهرة فقد أتاح له ذلك أن تتوثق بالصحافة صلتته ، وتوسع أمامه ميادين المشاركات الصحافية في جرائدها المختلفة ، فتتابع مقالاته ، ويتخذ في بعضها عنوانا خاصا كعنوان « بحثى اليوم » الذى اتخذته لمقالاته في المؤيد سنة ١٩٠٧ وقد تحرر من تلك الحياة المقصورة التي كانت تجعل هذه المقالات انعكاسا لقراءاته ، وصورة من صور دراساته ، أكثر منها تعبيراً عما تعج به الحياة حوله من مشاكل ، فقد أصبح في مجرى الأحداث ، فهو منفعل بها ، وهو في كتاباته معنى بتحليلها متابع لها . وبذلك أخذت مقالاته الصحفية في المؤيد واللواء والمنبر طابعا جديدا . تنعكس عليه تيارات الحياة الصاخبة المضطربة حوله .

ولكنه مع ذلك ظل حريصاً على تجنب السياسة في جميع ما كان يكتب في هذه الصحف التي هى - قبل شئ - صحف سياسية .

ولكن أكان من الممكن أن يظل معتصماً منها ؛ بالرغم من أن السياسة أخذت تفرض نفسها فرضاً على كل مواطن مصرى ؛ وخاصة هؤلاء الذين يعيشون في القاهرة تغاديرهم صحفها وتراوحهم ؛ وتردد أصداءها أفديتها ومجالسها . وهو لم يعد مواطناً من عامة المواطنين ؛ فقد وضعت اتصالاته الصحفية الواسعة في مجرى الأحداث العامه ومهب التيارات السياسية ؟

وقد كان مما أتاحته مشاركاته الصحفية اتصاله بالزعيم الشاب مصطفى كامل ، في الفترة التي بلغت فيها الوطنية المصرية غاية عنفوانها ، وبلغ فيها مصطفى كامل أوج قوته في التعبير عنها وإثارتها . وقد كان لهذا الزعيم سحر خاص في قلوب المصريين عامة والشباب خاصة ، وقد تعرض محمد فريد وجدى في اتصاله به لتأثير شخصيته الساحرة ، فلم تلبث الصورة التي كانت له في نفسه ، قبل أن يتصل به ، وهو يحيا تلك الحياة المقصورة ، أن تبدلت تبديلاً تاماً ، كما عبر عن ذلك بقوله : « وكنت اغلبة الشبوية على مزاجي أعجب به إلى حد محدود ، وأعزو كل رفعتي إلى جسارة حلاه الله بها ، لا إلى روح سامية حلت في جثمانه ، كما هي عقيدتي فيه الآن » . أفيمكن ألا يكون لمثل هذه الصلة أثرها في انتزاعه من عزلته عن عالم السياسة ؟

وإذا كانت طبيعة فريد وجدى المتحفظة ، واعتداده بنفسه وغاؤه في ذلك ، مما جعل اتصاله بمصطفى كامل محدوداً . وقلل من فرص لقائه معه حتى إنه لم يلقه بعد مجيئه إلى القاهرة إلا بعد نحو عامين ، فإن الصورة العنلية التي مثلت في خياله عنه كانت صورة قوية شديدة الإيحاء ، إلى حد أنهم لم يكادا يلتقيان للمرة الأولى ، في دار اللواء ، حتى كان إحساس فريد وجدى أنهما صديقان منذ عهد بعيد ، وأن علاقة من الود واتفاق المشارب والمنازع تربط بينهما برباط وثيق ، وحتى وجد نفسه مندفعاً في تيار الحزب الوطني الذي لم يكن قد تآلف بعد بصورة رسمية ، يشغله من قضايا السياسة ما يشغله .

فها هو ذا أصبح من رجال السياسة ، ولم تكده تتألف الجمعية العامة للحزب الوطني حتى صار عضواً من أعضائها . ولكن يبدو أنه كان يفرق بين أمرين : أن يكون مواطناً سياسياً تشغله قضايا وطنية وأن يكون كاتباً سياسياً يشرح هذه القضايا ويدافع عنها . أما الأول فلعله أصبح يراه أمراً محتوماً مقضياً لا معدل عنه . وأما الثاني فأكبر الظن أنه وقف

إزاء موقف التحفظ ، لا لأنه يكره أن يكتب في السياسة ، ولكن لأنه لا يستطيع — بحكم طبيعته ونزعه الاستقلالية — أن يضع قلبه في خدمة أى اتجاه سياسى تعبر عنه هذه الصحيفة أو تلك، بحيث يخضع رأيه لرأيها ويطوع قلمه للاتجاه الغالب عليها .

فليس له إذن ، ليكون كاتباً سياسياً ، إلا أن تكون له صحيفته الخاصة .

وهكذا بدأ — فيما نقدر — يفكر فى إصدار جريدة سياسية يومية ، إلى جانب مجلته الدينية الاجتماعية الشهرية ، يتخذ بها إلى الغاية التى امتدت واتسعت أفاقها أمامه وسيلة جديدة .

ولا ريب أن المسكاة التى احتلها فى أذهان المواطنين ، بكتابات التى كانت تتلاحق فى السكتب والصحف ، منذ قريب من عشرة أعوام ، كانت مما شجعه على اقتحام هذا الميدان الجديد ، فلم يلبث أن أعلن عن عزمه على إصدار هذه الجريدة ، وقد اختار أن يسهم القراء فى رأس مالها ، كما اختار كلمة « الدستور » اسماً لها . إذ كان الدستور عنده هو أهم ما كسبته الأمة لنفسها منذ سنة ١٨٧٩^(١) ، وأنه أساس كل رقى سياسى ، وأن استرداده جدير بأن يرد للامة اعتبارها ؛ ويحقق لها كيانه ، كما يعبر عن ذلك بحديثه عنه ، فى سياق تعليقه على خطبة لزعيم الحزب الوطنى ، محمد فريد ، وذلك إذ يقول :

« إذا عاد اليينا الدستور الذى أسسناه بأيدنا ، ودعمناه بأنفسنا بدون

(١) كان مجلس شورى النواب قائماً فى مصر ، منذ سنة ١٨٦٦ . ولكن مبدأ المسؤولية الوزارية ، الذى هو جوهر الدستور ، لم يقرر إلا سنة ١٨٧٩ ، وكان ذلك بمقتضى اللائحة التى وضعتها الجمعية الوطنية التى اجتمعت فى ١٢ إبريل سنة ١٨٧٩ وطالبت بتعديل نظام مجلس شورى النواب ، وتحويله السلطة المترف بها للمجالس النيابية فى أوروبا وتقرير مبدأ المسؤولية الوزارية أمامه .

مساعدة أمة أجنبية ، ولا تدخل نفوذ عال ؛ فقد أخذنا في أيدينا مفتاح سائر هذه العقد الباطلة ؛ فتصبح وزارتنا في أيدينا ؛ نولى من نحب ونعزل من نكره وأصبح صوت الأمة هو الصوت الأعلى في كل مسألة من مسائلها . فالسياسة كل السياسة أن نتوجه بكليتنا لطلب الدستور ؛ لانكل ولا نمل ، ولا يأخذنا يأس ولا قنوط .. فالدستور الدستور ! لا حياة إلا بالدستور ، لنطلبه بأرواحنا وأصواتنا ، ولنشعر بضرورته أنفسنا وأهلنا ، ولنجعل سيرته حديثنا وسمرنا ، ولنلفظ قول الممخرقين المأجورين^(١)

فإذا كان اليوم السادس عشر من شهر نوفمبر سنة ١٩٠٧ فقد صدر العدد الأول من هذه الجريدة التي كان الناس يترقبون صدورها ، لتكون إلى جانب جريدة اللواء صوت الوطنية المصرية الواضح الصريح ، ولسانها الذي لا يمالئ ولا يداهن ، ولا يسالم أو يلاين ، بعد أن فترت حماسة المؤيد وخفت صوته في مهاجمة المحتل ، واتخذ إزماءه أسلوباً غير أسلوبه الأول ، وبعد أن خاب رجاء الأمة في بعض الصحف الأخرى ، كالأظهر والمنبر .

وصدر صاحب الدستور هذا العدد بمقالة ضافية تنبئ بالمنهج الذي أراد أن يتبعه في هذه الصحيفة التي قال إنه بإصدارها لا يدعى أن في الصحافة المصرية فراغاً جاء ليسده ، فإن في ذلك — كما يقول — غمطاً لحق من تقدمه من العاملين . فما به إلا أن يزيد في صوت الدفاع عن حقوق مصر صوتاً جديداً ، لا يختلف في النغمة عن سائر الأصوات المخلصة . إلا أنه سيتعطر بعبق من العلم الاجتماعي . فما الدستور والحالة هذه إلا

(٢) الدستور ٢٢ إبريل سنة ١٩٠٨ ؛ وأنظر ما كتبه الأستاذ العقاد في كتابه حياة قلم (ص ٦٧) تعليقا على اختياره الدستور أسما لصحيفته .

بحام جديد انتدبته الأمة . باقبالها على سهومه للمرافعة في قضية مصر بأسلوب علمي ، ليصبح صوت الدفاع حاصلاً على كل مايجعله محترماً .

فهو لا ينسى وهو يصدر هذه الصحيفة السياسية ، صفته العلمية التي نشأ عليها وعرف بها ، فهو يريد أن يطبع صحيفته هذه بطابعها ؛ وهو يرى أن في اسباغ هذا الطابع على صوت الدفاع عن مصر ما يجعله أكثر قوة ؛ وأجدر أن يظفر بالإجلال ، ويملك بذلك سبباً جديداً من أسباب الإقناع .

أما « العلم الاجتماعي » الذي ينوّه به في هذه العبارة فهو العلم الذي اتجه إليه وأقبل عليه منذ أول عهده بالكتابة والتأليف ، فكان معتمدة في دراساته المختلفة عن الإسلام وعن المرأة ، في كتابه تطبيق الديانة الإسلامية على نوااميس المدنية ؛ والإسلام في عصر العلم ، والمرأة المسلمة ، وجديره أن يأخذ مكانه فيما هو مقبل على معالجته من قضايا السياسة .

ويبدو ذلك واضحاً في هذه المقالة الافتتاحية التي استهل بها مقالاته التالية في الدستور ، أو التي قدمها بين يديها ، كما يقول ، فهي ليست إلا بحثاً اجتماعياً علمياً ، أراد به - على حد قوله - أن يكون « نظرة عامة على حياتنا الاجتماعية والسياسية ، والعوامل التي تتنازعنا من جهتهما ، وما ينبغي أن نسلكه من المذاهب في سبيل الحصول على غايتنا من الاستقلال والحرية » . وقد تحدث في هذا البحث عن دور الانتقال الذي يقرر أنه الدور الذي كانت تمر به مصر في تلك الأيام ، مبيناً خطره في حياة الأمم من وجهة النظر الاجتماعية ، وما ينبغي أن تعتمده أو تعتمد عليه في مواجهة ما يحفل به هذا الدور من مخاطر ، ويذهب إلى أن العباد الوحيد الذي تعتمد عليه الأمم فيه هو قوتها الذاتية ، فإن أخطأها ذلك كانت مستندة إلى غير سند .

وإذا كانت هذه المقالة الافتتاحية تنبئ بالمنهج الذى أراد الدستور أن يأخذ نفسه به ، والصيغة التى حرص على أن يصطبغ بها ، من التزام الأسلوب العلمى ، وأصول الدرس الاجتماعى فقد عين أهدافه ومبادئه فى البيان الذى دأب على نشره فى أعداده الأولى ، فى هــ هذه الفقرات :

أولاً : المطالبة بالحقوق الطبيعية ، يندرج تحتها الاستقلال والحكم الذاتى ، وبيان وسائل الحصول عليها ، عن طريق الآداب الاجتماعية السلبية .

ثانياً : تقوية العاطفة الوطنية فى النفوس ، وهى العاطفة التى عليها مدار الوجود السياسى للأمم .

ثالثاً : العمل على ترقية الشعور العام بالحقوق والواجبات الاجتماعية واعداد النفوس لقبول عظات الحوادث والاستفادة منها .

رابعاً : العمل على توجيه العواطف والأمال الوطنية المتعددة إلى وجهة عامة مشتركة ، لتكون للأمة شخصية تامة الصورة ، يعرف لها حق فيحترم ، ويعلم لها وجود فيعتبر .

خامساً : تصوير موقف مصر بإزاء الأمم عامة وإزاء السلطات التى تتنازعها خاصة ، وتعيين واجبات المصريين حيال ذلك .

سادساً : البحث فى الأحزاب المصرية ومراميها ، ودرس عوامل كل منها ، والى الكلام على الجرائد التى تشخصها .

سابعاً : تنشيط حركة النهضة المصرية ، والدعوة للتعليم والتربية ، وإرفاد كل مامن شأنه إعداد المصرى للاستقلال والحرية .

ثامناً: نشر مباحث فى العلوم السياسية والاقتصادية، وتركيب الامم،
والحقوق والواجبات الطبيعية، ونظام المطالبة بها، وكيفية حفظ الامم
لمركزها بين حركات التنازع السياسى والاقتصادى والاستعمارى الواقع
عليها من الامم الأخرى .

ومن تلك المقالة الافتتاحية التى درس فيها وضع مصر الاجتماعى
فى تلك المرحلة من حياتها، مبيناً العوامل المختلفة لهذا الوضع والوجه
الذى يتخذها، ومن هذه الفقرات التى لخص فيها خطة الدستور ومبادئه
وأهدافه والتى صيغت صياغة علمية موضوعية، نستطيع القول بأن محمد
فريد وجدى أراد — فيما أراده بهذه الصحيفة — أن تكون ميداناً
جديداً أبعد مدى وأرحب آفاقاً يستطيع أن يمارس فيه نشاطه العلمى ،
ويطبق فيه مبادئ علم الاجتماع ومناهجه ودراساته على أحداث المجتمع
المصرى ودلائقه .

وكذلك كانت مقالاته التى كان يتناول بها أحداث السياسة الداخلية
تحليلاً اجتماعياً يصطنع الأسلوب العلمى أكثر مما يتخذ الأسلوب
الخطابى . وكأنما كان يرى فى العمل السياسى الذى أقدم عليه بإصدار
هذه الصحيفة وجهاً من وجوه النشاط العلمى الذى انصرف إليه واستغرق
فيه ولا يرى فى السياسة إلا صورة من صور علم الاجتماع الذى كان
دائم النظر فيه والدرس له ومتابعة ما يصدر من الدراسات عنه ، حتى
ليبدو لنا أن كتاباً من كتبه لم تكن لتفوته قراءته .

وقد حرص محمد فريد وجدى على هذه الصبغة العلمية لجريده ، سواء
فى أسلوب تحريرها ، أم فى موضوعاتها ، وسواء فيما يعالج من أمور
السياسة ، أو ما كان يوسع له فى صفحاتها من دراسات علمية خالصة .

ومن ذلك جاء كثير من مقالاته فى صورة سلاسل ، تعالج كل سلسلة

منها بحثاً مستقلاً أو موضوعاً خاصاً . يتوفر عليه ، ويتناوله من نواحيه المختلفة ، كسلسلة مقالاته التي كتبها بعنوان : « الصحافة المصرية ، بحث انتقادي » ، ومقالاته التي كتبها عن مصطفى كامل عقب وفاته ، وقد بلغت نحو عشر مقالات ، ومقالاته التي كتبها في الرد على كتاب اللورد كرومر وقد تجاوزت العشرين مقالا .

ومن ذلك أنه كان يوسع صدر الدستور لمتابعة الحركة العلمية ، بترجمة بعض الكتب التي تصدر عن علماء أوربا ، وتعد من أمهات الكتب ، ككتاب ماكس نورداو : « الأكاذيب المتفق عليها في مدينتنا الحاضرة » ، فقد أخذ في ترجمة بعض فصوله منذ السادس والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٩٠٧ . وبما قاله في المقدمة لما شرع في ترجمته ، بما يدل على الاتجاه العلمي الذي كان حريصاً على أن يوفره لصحيفته : « وبما أننا في هذه الجريدة نود أن نطلع قراءنا على كل شيء ، سواء كان في السياسة أم العلم أم الفلسفة أم الدين ، فسنترجم لهم ما يحسن أن يطلعوا عليه ، من هذا الكتاب ، ومن كل كتاب نافع ، في كل ضرب من ضروب العلم » .

ولم يلبث في السنة الثانية ، أن استحدث باباً ثابتاً ، بعنوان : « حركة العلم والفلسفة في القرن العشرين » .

هذه بعض مظاهر الطابع العلمي الذي أراد محمد فريد وحدى أن يسود صحيفته ، اعتزازاً بالصفة العلمية التي كانت أظهر مميزات شخصيته . وهي الصفة التي كان من أظهر مكوناتها عنده سعة الأفق ، وحرية الفكر ، واستقلال الرأي ، وكان لكل ذلك أثر في صحيفته : الدستور .

وقد قال الأستاذ العقاد أنه كان من أرحب خلق الله صدراً لحرية الرأي وحرية المناقشة^(١).

(١) حياة قلم ، ص ٩٦ .

وكانت هذه الصفة أول انطباع انطبعت به نفسه عنه ، عقب لقائه الأول معه ، في شأن العمل معه في جريدة الدستور إبان انشائها ، فقد خرج من عنده وهو يقول لنفسه : إن أكبر خلاف بيني وبين كاتب كهذا لن يعوقني عن العمل معه ثم يفسر هذا بقوله : « لأنني عجبت لحرية فكرة ، مع اشتغاره بالتعصب والمحافظة ، بل بالتمت والخرج في شؤون الدين والدنيا ، فما من فكرة قط كان يرى أنها قضية مسلمة ، وأنها لا تقبل المناقشة . » ثم يقول : « ودام عملي في صحيفة الدستور من عددها الأول إلى عددها الأخير ، فأكاد أقول إن ما خالفته فيه أثناء هذه المدة أكثر مما وافقته عليه ، ولكنه لم يغير كلمة واحدة كتبها لمخالفة رأيه »^(١).

كما يقول في موضع آخر ، في الفصل الذي خصه به ، وتحدث فيه عن بعض خصائصه ، ومن ذلك استقلال الرأي ، فقال : « وأشرف ما يكون صاحب المبدأ إذا كان استقلالة برأيه لا يأبى عليه أن يعرف لغيره حقهم في الاستقلال بما يرون . »

وقد كنت يوم اشتغلت بتحرير الدستور كاتباً ناشئاً ، خامل الذكر ليس لي بحق الشهرة أن يكون لي رأى مستقل مسموع . ولكنني كنت أخالفه في بعض آرائه ، بل في بعض مبادئه السياسية ، وبعض معتقداته عما وراء المادة وتحضير الأرواح ، وأشهر ما كان من ذلك حول موقف الحزب الوطني من سعد زغلول ؛ فلم يمنعني ذلك أن أنشر في الدستور ما يخالف هذا الموقف ؛ وأن احادث سعد زغلول حديثاً ينفي عنه كل ما يعزوه إليه كتاب اللواء^(٢) .. وقد صارحته غاية الصراحة فيما كان يعتقد من تحضير الأرواح ، وصارحتني غاية الصراحة في أمر المتشابهات من

..

(١) حياة فلم ، ص ٦٥ .

(٢) نشر هذا الحديث في عدد ٢٢ مايو سنة ١٩٠٨ من جريدة الدستور .

العقائد والاحكام ؛ فلا أذكر أننى لمحت منه عند أشد المخالفة نظرة غير نظرتة حيث تقترب الافكار والآراء،^(١)

ويذكر فى موضع آخر ما يشير إليه هنا من فسخ الدستور صدره لرأى فى سعد زغلول ، مخالف لرأيه ورأى الحزب الوطنى ، إذ يقول :

« وكانت صحيفة الدستور لسانا ثانيا للحزب الوطنى بعد اللواء ، وكان موقف الحزب الوطنى معروفا من سعد زغلول ، وبخاصة بعد قيام الشيخ جاويش على تحرير اللواء ، ولكنى كنت أؤيد سعدا وأرد على ناقيده فى الدستور ، فلم يمنع كلمة واحدة مما كتبتة فى هذا الموضوع. »^(٢)

وإذا كان محمد فريد وجدى يقدر - إلى هذا الحد - حرية الآخرين فى التعبير عن آرائهم ، وحققهم فى أن تنشر لهم فى صحيفته ، فإنه كان يرى من واجبه أن يجهر برأيه ، « ولو خالف القوة والكتلة وخالف أحب الناس إليه » كما يقول العقاد ، وإلا فقد خان الأمانة بسكوته عن الحق ، إرضاء لهذا ، أو مجاملة لذاك ؛ أو نظرا للعواقب التى قد يتعرض لها فى نفسه أو فى صحيفته ؛ أو لأن الرأى الذى يراه لذاته قد يحمل على غير محمله ، أو يوجه إلى غير وجهه ؛ أو ما إلى ذلك .

ومن ذلك ما حكاه الأستاذ العقاد من وقوفه وحده إلى جانب السيد توفيق البكرى ؛ فى تصرف اسخط الخديوى عليه ؛ بالرغم مما بينهما من تباعد شديد .

وخلاصة القصة - كما يحكيها الأستاذ العقاد - : « أن السيد محمد توفيق البكرى كان محنقا على الخديوى فى بعض السنين ؛ فنع أصحاب

(١) رجال عرفتهم ، ص ١٦١ - ١٦٢ .

(٢) حياة قلم ص ٦٦ .

الطرق من الخروج بموكب المحمل ؛ تحية للامير في ميدان الاحتفال .
ثفلا الميدان الا من الموظفين المدعوين ؛ وغضب الأمير لأنه فهم من
ذلك أنه زراية بالموكب الذى تعود أن يشهده العام بعد العام ، فانتهر
السيد توفيق . وقال له بصوت مسموع على ملأ من رجال الدولة : أنت
قليل الأدب . . . ! و غضب السيد توفيق فانصرف من الاحتفال وهو
يقول للامير بصوت مسموع كذلك بين الحاضرين : لست أنا قليل
الأدب . . . ! إننى وزير مثلك . وآبائى وأجدادى لهم الفضل على آبائك
وأجدادك .

ولم تأخذ صحيفة واحدة بناصر السيد البكرى في هذا الموقف . لأن
الصحف الإسلامية لا تغضب الأمير من أجل شيخ الصوفية . ولأن
الصحف غير الإسلامية لم تشأ أن تتعرض لمسألة من مسائل الدين .

إلا صحيفة الدستور التى كان يصدرها فريد . فإنها أخذت بناصر
البكرى . وهو من غير المقبولين عند صاحبها ، لاختلافهما في المسلك
والسيرة . ولكن صاحب الدستور نظر إلى شيء واحد في هذا الخلاف
وهو أن مظاهر الطرق الصوفية بدعة لا يستحسنها ، وأن الأمير لم يكن
على حق في غضبه على شيخ الصوفية لمنع حضورها^(١) .

وعن هذه الصفة التى كان محمد فريد وجدى حريصا عليها . مغاليا
بها ، وكان يراها دافعه الأول إلى إصدار الدستور ، كانت أزمته الأولى
مع الحزب الوطنى . وكان يرى أن صلته بهذا الحزب وعضويته فيه ، لا تقتضيان
أن يخضع رأيه له . ويطوع قلمه للدفاع عما لا يراه من قراراته أو اتجاهاته ،

(١) رجال عرفتهم ، ص ٥٩ . وأنظر موقف بيت البكرى من الأسرة العلوية

ص ١٠٠ — ١٠١ ، ص ١١٠ .

فعضوية الحزب شيء واستقلال الرأي شيء آخر. وهو لم يفشى هذه الصحيفة لتكون صدى لجريدة اللواء أو صورة منها . ولكنه أنشأها لتكون وسطا بين الأحزاب . تحكم الآراء جميعاً إلى العقل والمنطق والمبادئ التي لا جدال فيها .

وقد نشأت هذه الأزمة ولما يستكمل الدستور شهراً ونصف شهر منذ أول صدوره ، بعد اجتماع الجمعية العمومية للحزب الوطني، وتكون لجنته الإدارية وانتخاب مصطفى كامل رئيساً له ، يوم ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧ .

وفي هذا الاجتماع وافقت الجمعية العمومية على اقتراح رئيس الحزب «كتابة ثلاثة تلغرافات إلى السير كامبل باترمان والمستر فورمان وجريدة الديلي نيوز اعترافاً بمساعدتهم في الحصول على العفو عن مسجونى دنشواى ..» فكان هذا القرار هو ميثاق هذه الأزمة .

ذلك أن فريد وجدى لم يوافق على هذا القرار ، وأعلن فى الدستور فى اليوم التالى ، رأيه فيه ، إذ قال — بعد إبراد محضر الجلسة ، والثناء على خطبة مصطفى كامل ، وقد وصفها بأنها صوت الأمة استخدم لسان مصطفى باشا كامل ، فعبر عن ضميرها أحسن تعبير وأبلغ بيان - :

« . . . ولكن الدستور الذى اختار لنفسه أن يكون جريدة حرة لا تملق لها بحزب من الأحزاب ، ليشرف على مجموع حركاتها من بعيد ، فيكون بينها واسطة للصالح وممانعه من التصادم الذى يجر إلى دمارها ودمار الأمة معها ، وحتى لا تعدم الأمة جريدة تقول الحق لها أو عليها ، فيرى أن من واجبه الملاحظة على هذه الخطبة ، كما لاحظ على خطبة رئيس حزب الإصلاح أمس . وإنى مهما كنت شاعراً للحزب الوطنى

وزعيمه بالميل والحب ، فلا أستطيع أن أنسى أنى - فوق ذلك - مسلم ،
أقول الحق ولو على نفسى .

وبعد هذه المقدمة التى بين فيها استقلال « الدستور » عن الأحزاب
وإن ربطت بينه وبين الحزب الوطنى وزعيمه مشاعر الميل والحب ،
قال :

« فالذى ألاحظه على الحزب الوطنى أمر هو من الخطارة
بمكان ، وهو إرساله تليفرافات الشكر إلى السير كامبل بانرمان والمستر
فورمان والديلى نيوز ، بمناسبة العفو عن مسجونى دنشواى ، فإن ذلك
ضد مبادئه على خط مستقيم ، لأن مبدأه قائم على اعتبار الإنجليز مختصين
لأنفسهم سلطة لا تخولها لهم العهود ولا المواثيق التى احتلوا بلادنا
بمقتضاها .

وإن من تلك السلطة المختصة الحقوق المخولة لخدوى مصر التى جاءت
لتأييدها . ولا شك أن من تلك الحقوق حق العفو عن المسجونين .
فكيف يشكر الحزب الوطنى السلطة الغاصبة على ما فعلته ، بما هو من
حقوق الخديوى المنصوبة . . . » إلى آخر ما أورده فى هذا ، وانتقل بعده
إلى نقد ما جاء فى خطبة مصطفى كامل من اتهام بعض أبناء الوطن بأنهم
« كاذبون مارقون خارجون على الأمة والملة وغاشون للوطن وأبنائه ،
محاربون له فى أعز آماله » فقال :

« هذه التهم التى وجهها سعادة الزعيم ولم يعين وجهتها يعتبرها بعض
لأفراد موجهة إليهم بالذات ، فيسعون فى مقابلهته بشلها ، ويوجهون
ظر أنصارهم إليها ، فيتعصب معهم قوم ، ويتعصب معه آخرون ،

فتصبح الأحزاب ويلا على البلاد . . ثم إنى لأعتقد أن في الأمة خائنا لوطنه ، ولاخارجا على الأمة والملة ، مادام كل العاملين يصرحون بأنهم مخلصون للوطن خادمون له . وقد نهانا ديننا عن أن نقول لمن آمن خداعا ونفاقا : لست مؤمنا ، فقال تعالى : (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا) . فكيف نقول لمصرى يصرح بأنه مخلص للوطن : إنك خائن مارق خارج على الأمة والملة ، اعتمادا على اعتبارات واهية ، أو تهمة لا يمكن تحقيقها .

هذا ما لاحظناه على لجنة الحزب الوطنى وسعادة زعيمه، قياما بوظيفتنا أمام كل حزب يقوم فى مصر ، حتى لا تنطمس الحقائق أمام نظر الأمة فلا نجد لها جريدة حرة قوية تشدد النكير على كل متحرش بخصمه منا ، فان التناوب ليس من مصلحة مصر فى شيء . »

كان طبيعيا أن تنور نائمة أنصار الحزب الوطنى وشبابه خاصة لهذا الموقف الذى اتخذته الدستور من لجنة الحزب ورئيسه، وقد كبر فى نفوسهم أن يكون صاحب هذا الموقف عضوا من أعضاء الحزب بدعوى حرية الرأى ، وأنه وضع صحيفته فى الموضع الوسط بين الأحزاب . فلا يكاد يظهر ذلك العدد ، ويقرأ القراء ذلك النقد ، حتى تتابع رسائلهم عليه منكرين ساخطين مهددين متوعدين ، فكان ينشر رسائلهم ويرد عليها مؤكدا أنه عضو فى الحزب الوطنى ، وأن بينه وبين رئيسه صداقة أكيدة ، ولكن عضويته فى الحزب لا تمنعه من أن يجعل صحيفته فوق الأحزاب ، كما لا تمنعه من أن ينقد قرارا اتخذته ، أو خطبة قالها زعيمه ، فذلك واجبه تجاه الوطن والحزب جميعا . فيقول مثلا فى أحد هذه الردود :

« إنى لم انتبذ بالدستور مكانا بعيدا عن الأحزاب إلا ليكون واسطة

اتحاد واتفاق بينها ، وواقفا موقف المراقب لأعمالها ، حتى لاتحرم الأمة من جريدة غير متحيزة ، فتضيق الحقائق وتنطمس المعالم ، ولا يكون للطرفين وسط ، أما أنا فواحد من أعضاء الحزب الوطنى ، اعترف بأن مبادئ هذا الحزب هى المبادئ الصحيحة التى يجب على كل مصرى أن يأتم بها ، ويتخذها له دستورا .

ولكن هل يغيب عن حضرة الأخ أن كونى من الحزب الوطنى ، معترفا برعاية مصطفى باشا كامل ، لا يمنع أن انتقد على خطبته ، وأن أبين للشبيبة منها موقع الخطأ والصواب على ما يقتضيه واجب الصحافة ؟

هل تمنع الانجليزى إنجليزيتة عن الانتقاد على خطبة ملكه أو زعيم حزبه ؟

إذن ما فائدة الجرائد ، وما معنى التناسح والتعاون فى الخدمة ، والمساعدة على تقويم الآراء وتعديل المنازع ؟

فى أى مذهب وأى قانون يعد الانتقاد رذيلة أو تلوينا أو بعدا عن الواجب ؟

وما فائدة إصدارى جريدة الدستور ، وفى مصر جرائد لاتحصى ، وأنا فى غنى عن الكسب من جهته ، إن كنت لأملك حرية الانتقاد فيما اعتقده واجبا ضروريا ؟

نحن أصبحنا فى عصر ننتقد فيه على سياسة سلاطيننا وملوكنا ، أفلا نستطيع أن ننتقد على إخواننا وأصدقائنا .

قد انتقد الدستور أول أمس على خطبة رئيس حزب الإصلاح ، فيما رآه محلا للنقد ، فماذا يعد نفسه ويعده الحق والناس لو سكت عن نقد خطبة رئيس الحزب الوطنى فيما يراه محلا له ؟

أنا أسست الدستور وأردت به تأسيس جريدة حرة عادلة رشيدة
قرآنية المزاج ، لا تميل مع الهوى ، ولا تحيف على خصم ، ولا تنابذ الأنداد ،
ولا تتعدى حدود الأدب ، ولا ترى غير الحق سلطانا ، ولا سوى
الفضيلة حلية .

وتاريخ حياة الدستور من أول ظهوره إلى اليوم يشهد بذلك ، فقد
نابذته الجرائد وتحككت به تحككا يغرى الحليم بالنضب ، فكان العهد
الذي عاهدت عليه نفسى قبل تحرير هذه الجريدة مانعا لى من مقابلتهم
بالمثل ، لأن لى مع الحق شأنا يلهينى عن الالتفات للسفاسف .

هذا هو الدستور ، وهذا خلق صاحبه ، وما عاهد الله عليه ؛ فمن رضىنا
بهذا الخلق حمدنا الله على نعمائه ، ومن نقم منا هذا المذهب فبيننا وبينه
الحق فاصلا ، وماذا بعد الحق إلا الضلال . فاما الزبد فيذهب جفاء ،
وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض .

يهددى حضرة الأخ بسحب نقوده ^(١) ، وهو أقل ما يهدد به مثلى ،
ولانى أصرح لحضرتي بأنى لو التجئت إلى أشد ما يتصوره عقله على أن
أخون عهدي لما تزحزحت عنه قيد شبر ، إلا إذا أراد الله فتتى ، به اعتصم
وإليه أنيب ،

بمثل هذا كان محمد فريد وجدى يدافع عن حقه فى أن يعبر عن رأيه ،
وأن ينقد ما يستحق النقد فى حزبه ، كما ينقد سائر الأحزاب ، بل إنه
يرى أن نقد حزبه أو جب عليه . وقد عرض فى موضع آخر لاعتذاره عن

(١) يشير بهذا إلى قول صاحب الرسالة : انى انصح لكم بان تستحضروا المال اللازم
لشراء الأسهم التى بيد الشبيبة .

بعض مناصب اللجنة الإدارية حتى لا يحول ذلك بينه وبين أداء هذه الأمانة ، قائلاً : « وقد رشحت لوظيفة سامية في لجنته الإدارية فرفضت الترشيح ، ليتسنى لي أن أخدم الحزب الوطنى المبجل وسائر الأحزاب الأخرى التى اعتبرها فروعا منه . علما بأننى لولم أفعل ذلك اضطر الدستور بحكم الوظيفة أن يعد لسانا رسميا ثانياً للحزب الوطنى ، فلا يستطيع أن يبدى عليه أى انتقاد . ومن كان مثلى ممن يعلم أن الحق كبير ، وأن الأفراد والأمم لا تصل إليه إلا بعد الجهد ، الجهد . والسكد الأكيد ، عسر عليه أن يتقيد بقيد الوظيفة عن قول ما يجيش بصدرة بكل صراحة وبيان .

ولو كنت قبلت وظيفتى فى اللجنة الإدارية للحزب الوطنى ، وجعلت دستورى واللواء سواء ، فما فائدتى من إصداره ، وصرف وقتى فى تحريره وتحريره ؟ »

وبهذا كان الدستور صورة معبرة عن شخصية محمد فريد وجدى أصدق التعبير وأدقه .

أما الأمر الذى كان معقد الخلاف بينه وبين الحزب ، فقد عرض له فى هذه الردود غير مرة ، مقررأ أن ما رآه فيه إنما يصدر به عن مبادئ الحزب الوطنى ، إذ يقول من ذلك مثلا :

« ... ونحن معشر أعضاء الحزب الوطنى الذين وقفنا على سررقى الأمم وهبوطها ، ومبلغ تأثير الاعتبارات على حركاتها وسكناتها ، نحب أن نرقى بالأمم من جهة إشعارها بكرامتها وبقوتها الذاتية ، وإرادتها ، وسلطانها السكامنة فيها ، وإشعارها بأن خلاصها مرتبط بها ، ورفعها معقودة بإرادتها ، بدون تدخل أحد فى ذلك ، لأنه لا يتداخل المتداخل فى الأمة إلا لقتل شعورها ، واستخلاص نخاعها ، واستصفاء صفوتها .

وحزب هذه مبادئه يجب عليه أن يقطع رجاء الأمة إلا عن نفسها ،
وأن يبت حبال اتصالها إلا بذاتها ، ويؤيسها إلا من رحمة ربها ، لتستجيش
قواها الكامنة ، وتستثير حيويتها النائمة .

فالحزب الوطنى لا يجوز له أن يفتح للامة باب الاعتماد على غيرها من
أى طريق كان ، وإلا فأى مزية له على حزب الإصلاح .

بل لو فتح للامة باب الشكر ، وباب الارتكان على الغير ، لكان
حزب الإصلاح أكبر منه مزية ، فان من مبادئه تأسيس مودة بينه وبين
بعض أصحاب النفوذ من كبار الإنجليز ليشفعوا للمصريين أمام الوزارة
وفى البرلمان .

هذا من جهة عدم انطباق الشكر على المبادئ الأساسية للحزب الوطنى
وأما من جهة عدم لياقته ، فان الإنجليز صرحوا بأن عرائض المصريين
لا يعتد بها ، وأن رجاءهم فيها غير مقبول . وصبروا حتى يئس المصريون
من قبول رجائهم ، ثم أصدروا العفو من تلقاء أنفسهم ، ليعرفوا المصريين
أن لا احترام لإرادتهم ، ولا حرمة لصوتهم ، وقد طفحت جميع جرائدهم
بهذه الجمل ، وسيحمل لنا البريد منها ما ينجل المصريين . فهل يقابل
الإنجليز على هذا العمل بالشكر أم بالإغضاء التام وعدم الاهتمام به ؟ ولأنى
أصرح هنا بأن الوطنية الصحيحة تقضى على كل جريدة وطنية ألا تذكر
خبر العفو عن مسجونى دنشواى ، وألا تحتفل به أقل احتفال .

وليعلم المصريون أن الإنجليز ما عفوا عنهم إلا ليحفظوا مركزهم فى
وادى النيل أمام الدول ، فان بقاء مسجونى دنشواى فى السجن يوجب
القييل والقال من جرائد أوربا ، وهو ضد مصلحة الإنجليز ، فعفت عنهم
لتقطع هذه الأقاويل المقلقة لها ، ولولا ذلك لبقوا فى السجن إلى
ما شاء الله .

فاذا كان هذا هو الحق الصراح الذى لاشية فيه ، فما معنى حمل
الامة على أن تشكر ما صدر بغير رجائها ، بل بما يدل على احتقار
إرادتها .

إذا شفعت لبريء عوقب خطأ أمام حاكم ، فرد شفاعتك وصرح بأنه
لن يعفو عنه ما دمت تحدث نفسك بأن لك جهاها يسمح لك بالشفاعة ،
ثم بدا له أن يعفو عنه لسبب من الأسباب ، فهل لك أن تشكره على ذلك ؟
وبأى وجه يقابل شكرك هذا على ما لم يفعله لأجلك ؟

ولكن كل هذا الذى بذله محمد فريد وجدى فى توضيح موقفه وبيان
رأيه لم يغن عنه إلا قليلا فى نظر كثير من شباب الحزب الوطنى الذين
اعتبروه منشقا على الحزب ، بالرغم من كل ما قاله ، فقد كان ذلك أمراً
غريباً عندهم ، لأنهم لم يروا فى بلادنا جريدة تنتقد للوصول للحق المحض .
بل الذى رأوه أن من أخلص لواحد الحب ، وجب عليه أن ينزهه فى كل
ما يقول وكل ما يفعل ، لا يلصق به أدنى انتقاد ، ولو فعل توهم الناس
أنه قد حدث بينهما شقاق ، فيظنون يبحثون عنه ليهتدوا إليه ، كما
يقول .

وهكذا كانت أزمة الدستور الأولى مع الحزب الوطنى ، بما ترتب
عليها من انصراف كثير من قرائها ، من شباب هذا الحزب ، عنها ،
وانصراف بعض الشبان الذين كانوا يشاركون ، متطوعين ، فى تحريرها ،
عن هذه المشاركة .

ثم تكررت هذه الأزمات التى ترجع جميعها إلى حرص صاحبها على
حرية الفكر واستقلال الرأى ، والمجاهرة به . إلى أن انقسم أخيراً ما بينه

وبين الحزب الوطنى، فاذا هى تصدر يوم ١٩ أبريل سنة ١٩٠٩، وقد وضع تحت اسمها شعار لم يكن له من قبل ، وهو هذه العبارة : « لسان حال المقيمين على المبادئ الأصلية للحزب الوطنى » ، وإذا هو يكتب فى اليوم التالى فصلا ضافيا ، فى صحيفتين كاملتين ، بعنوان : « السبب الذى حملنا على خلع بيعة الحزب الوطنى » شرح فيه - على حد قوله - العوامل التى دفعته إلى أن يقف أمام لجنة الحزب الوطنى موقف الخالع يبيعها المجاهر بالخروج عليها ، وبين فيه « الفارق بين مبادئ الحزب الوطنى ومواقفه الأصلية ، على ما تركها عليه مؤسسه الأول مصطفى كامل ، رحمه الله ، وبين المبادئ الحالية لهذه اللجنة » .

وهكذا انقطعت كل صلة ، أو شبه صلة ، كانت تصله بالحزب الوطنى « فأنصرف قراء اللواء عن قراءة الدستور ؛ ولم يكن للدستور قراء من الشيع السياسية الأخرى » . كما يقول الأستاذ العقاد فى ذلك الفصل الذى كتبه عنه ، وقد ذكر تلك الأزيمة الأولى التى أوردنا تفصيلاتها ، كما سجلتها أعداد الدستور فى إبانها ، مختلفة فى هذه التفصيلات وإن لم تختلف فى مجملتها . ثم قال بعد ذلك : « فكسدت الصحيفة وبجرت عن النهوض بتكاليفها ، ولم يقبل صاحبها أن يعرض الخسارة بالمعونة المعروضة عليه من الجهات السياسية التى لا يوافقها » .

ومن المعونات التى عرضت عليه فى اخرج أيام الأزيمة معونة كبيرة من جماعة « تركيا الفتاة » يبدونها للدستور مشاهرة ، ليكون لسانا عربيا لحركتهم الدستورية ، ولكن على شريطة واحدة ، وهى أن يرفع من صدر الصحيفة كلمة « لسان حال الجامعة الإسلامية » . فرفض الرجل هذه المعونة ، ورفض أن يجعل صحيفته لسانا للحزب إلا بشروطه التى يرضيها ولو وافق الحزب على بقائها لسانا للجامعة الإسلامية .

وفي الوقت الذى كانت هذه المعونات تعرض عليه من شتى الجوانب — ومنها جانب الحاشية الخديوية — كان الرجل يتحامل على نفسه، وعلى القليل من موارد مؤلفاته، لينفق عليها، بعد تصغير صفحاتها واختصار إعدادها. فلما استنفد كل ما قدر على انفاقه فى هذا السبيل أعلن تعطيلها وهو مدين لتاجر الورق وموظفى التحرير والإدارة بمقدار غير يسير. . فأبت عليه نزاهة النفس أن يؤخر مليما واحدا لصاحب دين، واتفق مع تاجر الورق على استخلاص دينه من مؤلفاته بثمن يقل أحيانا عن عشر ثمنها فى المكتبات. ومنها — على ما نذكر — معجمه المسمى بكنز العلوم واللغة، وثمنه مائة وعشرون قرشا، فاتفق على حسابانه بثلاثة عشر قرشا. واشترط على التاجر أن يشتري النسخ التى تصرف للموظفين بما بقى لهم من متأخر الأجور والمرتبات، وحضر بنفسه تسليم النسخ واستلام الاثمان^(١).

وبهذه الخاتمة التى تمثل أروع صور النبل انتهت حياة « الدستور » ، بعد عمر قصير لم يتجاوز العامين. ولسكنه كان عمرا مباركا حافلا بما لا تنفى به دراسة موجزة كهذه الدراسة.

ولعل هذه الصفحة من صفحات حياة فريد وجدى تظفر بمن يتوفر عليها، وبحلوها، فيجلو بذلك مثلا من أروع أمثلة الفكر الحر، والرأى المستقل، والضمير الطاهر، والأفق الواسع الرحيب، وباتهاء حياة « الدستور » تنتهى هذه المرحلة الفريدة فى حياة محمد فريد وجدى، ليعود بعدها إلى نشاطه العلمى والأدبى الخالص متمثلا؛ فى صور مختلفة، نرجو أن نفرغ لدراستها، بعد، إن شاء الله.

(١) رجال عرقهم، ص ١٦٠ - ١٦١.

رقم الابداع بدار الكتب ١٦٦ هـ لسنة ١٩٧٠

المطبعة الفنية الحديثة
٥٠ شارع المصطفى بالزيتونة ٨٦٨٨٧

المطبعة الفنية الحديثة
٢٠ شارع الميمنية بالزيتونة - ٨١٦٨٧١

0

Bibliotheca Alexandrina



0207076